

المكتبة الصوفية

غَوْدُ الْأُمُورِ

للإمام الحكيم الترمذي
المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

ضبط وتحقيق

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح أ.د. أحمد عبد عوض

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

٢٠٠١ / ١٤٧٨٤	رقم الإيداع
977 - 341 - 056 - 0	I. S. B. N الترقيم الدولي



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - الظاهر - القاهرة

ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، الذى جاد على كل حى بما إليه حاجته، ووهب الإنسان عقلاً به انكشف القناع عن المجهول، وأشرقت على النفس أسرار الموجودات، وتجلت معرفة صانع الوجود، ومن إليه ينتهى كل موجود.

والصلاة والسلام على المرسل رحمة وهداية للناس أجمعين، المبعوث بالقرآن الكريم، قدوة أهل الحق، والباحثين عن اليقين.

أما بعد

فإن كتاب "غور الأمور" من المصنفات التى تضع المعرفة، وتوضح الطريق أمام السالك، وتضع العلامات المضيئة أمام الناس. والطريق - أساساً ومنهجاً وغاية - يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية.

وهذا الطريق جربه السالكون، وثبتت ثماره عن طريق التجربة أيضاً.

وكتاب "غور الأمور" وضعه العارف بالله، الحافظ، المحدث، الإمام، المؤذن، الحكيم، الترمذى:

"أبو عبد الله بن محمد بن الحسن بن بشر" الملقب بالحكيم.

ولقب الحكيم أسند إلى الترمذى خاصة، لأن التعاليم السلوكية قد خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية يفعل لها المتذوق فى جلوته، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته، بل هى حقائق

موضوعية لها كيانها المستقل، وعالمها الخاص.

ويذكر الدكتور عثمان إسماعيل يحيى، محقق كتاب "ختم الأولياء" للحكيم الترمذى: "أن حكمة الترمذى تبدو فى هذا التحليل البارغ لطبيعة النفس الإنسانية، وفى هذا التصوير الرائع لمناهج السلوك الروحى، وأخيراً فى هذا التمييز الحاسم بين أنماط الحكمة، ودرجات المعرفة".

والحكيم الترمذى كما لُقّب بلقب الحكيم، فإنه نسب إلى ترمذ، مسقط رأسه، حيث قضى بها أكثر سنين عمره، ولفظ أنفاسه الأخيرة فيها..

وفى دائرة المعارف الإسلامية يقول توماس أرنوك: "ونجد بين الأبنية فى أطلال المدينة القديمة لترمذ ضريح الولى أبى عبد الله محمد بن على الترمذى".

وولد الحكيم الترمذى سنة ٢٠٥هـ، وتوفى سنة ٣٢٠هـ حسب ما وصلنا إلين من تحقيق من خلال ما ذكره الذهبى فى "تذكرة الحفاظ"، وابن حجر فى "لسان الميزان". وفريد الدين العطار فى "تذكرة الأولياء"، ودار شكوه فى "سفينة الأولياء" وحاجى خليفة فى "كشف الظنون".

ويذكر صاحب "تذكرة الأولياء": أن الشيخ الترمذى كان قد عقد النية فى أول أمره، على الرحلة لطلب العلم، وفى رفقة اثنين من إخوانه وفى أثناء ذلك مرضت أمه، فقالت له: يابنى، إنى امرأة ضعيفة، لا عائل لى، ولا معين يعيننى، وإنك المتولى لأمرى، فألى من تكلنى وتذهب؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه وعدل عن الرحلة، ومضى زميلاه فى سبيلهما..

ثم مضى على ذلك بعض الوقت، فبينما كان فى إحدى المقابر يبكى بكاءً شديداً، ويقول: ها أنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً، وسيرجع أصحابى، وقد حصلوا

على العلم، إذ به يرى أمامه فجأة شيخاً مشرق الوجه، فسأله الشيخ عن سر بركاته، فأفضى إليه الفتى بحاله، فقال له الشيخ: ألا أعلمك فى كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك، فأجابه الفتى إلى ذلك.

واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم، ومضت على ذلك أعوام، ثم عرف الترمذى بعد ذلك أن الشيخ هو "الحضر" عليه السلام، وأنه إنما حصل على هذا بركة دعاء أمه.

ويقول الحكيم الترمذى فى رسالة خاصة بنشأته: كان بدو شأنى أن الله تبارك اسمه قيض لى شيخى، رحمة الله عليه، من لدن بلغت من السنة ثمانياً، يحملنى على تعلم العلم، ويعلمنى ويختنى عليه، ويدأب ذلك فى المنشط والمكره، حتى صار ذلك لى عادة وعرضاً عن الملعب فى وقت صباى.

فجمع لى فى حدائتى علم الآثار، وعلم الرأى، حتى إذا قارب سننى سبعاً وعشرين أو نحوه، وقع على حرص الخروج إلى بيت الله الحرام، فتهياً لى الخروج فوفقت بالعراق طالباً للحديث، وخرجت إلى البصرة، فخرجت منها إلى مكة فى رجب، فقدمت مكة فى بقية شعبان، فرزق الله المقام بها إلى وقت الحج، وفتح لى باب الدعاء عند الملتزم فى كل ليلة سحراً، ووقع على قلبى تصحيح التوبة، والخروج مما دق وجل، وحججت، فرجعت وقد أصبت قلبى.

وسأله عند الملتزم فى تلك الأوقات أن يصلحنى ويزهدنى فى الدنيا، ويرزقنى حفظ كتابه، وكنت لا أهتدى لشى من الحاجات غير هذا، فرجعت وقد ألقى على حرص حفظ القرآن فى طريقى، فأخذت صدرأ منه فى الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسر الله على بمنه، حتى فرغت منه، فأقامنى ذلك بالليل، فكنت

لا أمل من قراءته. إنه كان ليقمى ذلك إلى الصباح، ووجدت حلاوته.
فأخذت أتبع من الكتب محامد الرب - تبارك اسمه - والنقاط محاسن
الكلام، من طريق العظات، وما يستعان به على أمر الآخرة، واسترشد في البلاد،
فلا أجد من يرشدني في الطريق، أو يعظني بشئ أتقوى به، وصرت متحيزا لأدري
أى شئ يراد لى.. إلا إنى أخذت في الصوم والصلاة، فلم أزل كذلك حتى وقع في
مسامعى كلام أهل المعرفة.

ووقع إلى كتاب الأنطاكي، فنظرت فيه، فاهتديت لشئ من رياضة النفس،
فأخذت فيها، فأعاني الله، وأهملت منع الشهوات نفسى، حتى صدرت كأنى أعلم
على قلبى الشئ بعد الشئ، حتى ربما كنت أمنع نفسى الماء البارد، وأتورع عن
شرب ماء الأنهار، فأقول: لعل هذا الماء جرى في موضع بغير حق، فكنت أشرب
من البئر، أو من الوادى الكبير.

ووقع على حب الخلوة في المنزل، والخروج إلى الصحراء، فكنت أطوف
في تلك الخربات والنواويس حول الكورة^(١).

فلم يزل ذلك على دأبى، وطلبت أصحاب صدق يعينوننى على ذلك، فعز
على، فاعتصمت بهذه الخربات والخلوات.

فبينما أنا على هذه الحال إذ رأيت - فيما يرى النائم - كأنى أرى رسول
الله ﷺ دخل المسجد الجامع في كورتنا، فأدخل على أثره، فألزم اقتفاء أثره، فما
زال يمشى حتى دخل المقصورة، وأنا على أثره، ومن القرب منه، حتى كأنى أكاد
ألتزق بظهره وأضع خطاى على ذلك الموضع الذى يخطو عليه، حتى دخلت

(١) النواويس: المقابر - والكورة البقعة التى يجتمع فيها قرى ومعال.

المقصورة، فرقى المنبر، فرقيت على أثره، كلما رقى درجة رقيت على أثره، حتى إذا استوى على أعلاه درجة قعد عليها، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه عند قدميه، ويميني إلى وجهه، ووجهي إلى الأبواب التي تلى السوق، وشمالي إلى الناس، فانتبهت من نومي وأنا على تلك الحال.

ثم من بعد ذلك بمدة يسيرة، بينما أنا ذات ليلة أصلي، فثقلت، فوضعت رأسي في مصلاة جنب فراشي، إذ رأيت صحراء عظيمة، لا أدرى أى مكان هو، فأرى مجلساً عظيماً، وصدراً مهيباً لذلك المجلس، وحجلة^(١) مضروبة، لا أقدر على صفة تلك الثياب، وذلك السر، فكأنه يقال لى: إنه يذهب بك إلى ربك، فأدخل تلك الحجب، فلا أرى شخصاً ولا صورة.

إلا إنه وقع في قلبي أنني لما دخلت وقع على الفزع فى ذلك الحجاب، فأيقنت فى منامى بالوقوف بين يديه، فما لبثت أن رأيت نفسى خارجاً من الحجب، بالقرب من باب الحجاب، واقفاً وأنا أقول: عفا عني، وأجد نفسى قد سكنت من الفزع، فدام لى شأن رياضة النفس من تجنب الشهوات، وقعود فى البيت على عزلة من الخلق، وطول نجوى من الدعاء، فافتح له شئ بعد شئ ووجدت فى قلبى قوة وانتباهاً، وطلبت من يعينى، فكان يكون لنا اجتماع بالليالى تتناظر، وتذاكر، وندعوه ونتضرع بالأسحار.

فأصابتنى غموم من طريق البهتان والسعايات، وحمل ذلك على غير محمله، وكثرت القالة، وهان ذلك كله علىّ، وسلط علىّ أشباه ممن ينتحلون العلم، يؤذوننى ويرموننى بالهوى والبدعة، ويبهتون^(٢) وأنا فى طريقي، ليلاً ونهاراً، دعواً

(١) الحجلة : الستائر.

(٢) يبهتون: يدهشون.

دعواً، حتى اشتد البلاء، وسار الأمر إلى أن سعى بي إلى والي بلخ، وورد البلاء من عنده، من يبحث عن هذا الأمر، ورفع إليه أن هاهنا من يتكلم في الحب، ويفسد الناس، ويتدع، ويدعى النبوة، وتقولوا على^(١) ما لم يخطر قط ببالي، حتى صرت إلى "بلخ" وكتب على قبالة ألا أتكلم في الحب.

وكان ذلك من الله - تبارك اسمه - سبباً في تطهيري، فإن الغموم تطهر القلب، وذكرت قول داود ﷺ أنه قال: « يا رب أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة، فبم أطهر قلبي. قال: بالغموم والهموم يداود » .

فتواترت على الغموم، حتى وجدت سبيلاً إلى تذليل نفسي، فكنت أراودها على أمور قبل ذلك، من طريق الذلة، فتتفر ولا تطاوعني، مثل ركوب الحمار في السوق، والمشي حافياً في الطرق، ولبس الثياب الدون، وحمل شيء مما يحمله العبيد والفقراء.

فيشتد على ذلك، فلما أصابتنى هذه المثالة والغموم ذهبت شرة^(٢) نفسي، فحملت عليها هذه الأشياء، فذلت وأطاعت حتى وصل إلى قلبي حلاوة تلك الذلة.

فبينما أنا كذلك إذ اجتمعنا ليلة على الذكر، في ضيافة لأخ من إخواننا، فلما مضى من الليل ما شاء الله، رجعت إلى المنزل، فانفتح قلبي في الطريق فتحاً لا أقدر أن أصفه.

وكانه وقع في قلبي شيء طابت له نفسي والتذت به، وفرحت حتى مررت،

(١) تقولوا : اختلقوا كذباً.

(٢) الشرة : الحدة.

فما استقبلنى شئ هبته، حتى إن الكلاب ينبحن فى وجهى فأنس لباحهن من لذة وجدت فى قلبى... حتى بدا لى أن السماء بكوا كابها وقمرها صارت إلى قرب الأرض وأنا فيما بين ذلك أدعو ربى، ووجدت كأن قلبى نصب فيه شئ، فإذا وجدت تلك الخلاوة التوى وتقبض بطنى، التوى بعضه عن بعض من شدة اللذة واعتصر، وانتشرت فى صلبى وعروقى تلك الخلاوة، وكان يخنل إلى أن قربى من مكان قرب العرش.

فما زال ذلك دأبى كل ليلة إلى الصباح: أسهر ولا أجد نوماً، فقوى قلبى على ذلك، وأنا متحير، لا أدرى لما هذا، إلا أنى ازدادت قوة ونشاطاً فيما كنت فيه.

وهاجت بالبلاد فتنة وانتقاص أمر، حتى هرب جميع من كانوا يؤذونى ويشنعون علىّ فى البلاد، وابتلوا بالفتنة، ووقعوا فى الغربة، وخلت البلاد منهم. فبينما أنا كذلك إذ قالت لى أهلى: إنى رأيت فى المنام كأن قائماً فى الهواء خارجاً من الدار فى السكة، فى صورة رجل شاب، جعد، عليه ثياب بياض، له نعلان، وينادينى فى الهواء، وأنا فى الصفة بخذائه: أين زوجك؟ قلت: خرج، قال: قولى له: إن الأمير يأمرك أن تعدل، ثم مر.

فلم يأت على هذه مدة، حتى اجتمع الناس ببابى من مشايخ البلد، من غير أن أشعر بهم، وقرعوا الباب، فخرجت إليهم فكلمونى فى القعود لهم.. وقد كان هؤلاء الأشكال قد قبحوا أمرى عند العامة قبحاً كنت أتوهم أنهم السقم أكثرهم، لما كانوا يذيعون^(*) هؤلاء على من الكلام القبيح، ويشنعون أمرى، ويرمونى

(*) هكذا فى الأصل، والصواب: لما كان يذيع، لأن واو الجماعة لا تلحق الفعل إذا كان فاعله جمعاً.

بالبدعة من غير أن يكون ذلك من شأنى أو توهمته قط، فما زالوا يكلموننى فى ذلك حتى أجبتهم إلى القعود، فذكرت لهم من الكلام كأنه يغترف من البحر، فأخذت منى القلوب مأخذاً.

واجتمع الناس، فلم تحتمل دارى ذلك، وامتألت السكة والمسجد، فلم يزالوا بى حتى مدونى "جرونى" إلى مسجد، وذهبت تلك الأكاذيب والأقاويل الباطلة، ووقع الناس فى التوبة، وظهرت التلامذة، وأقبلت الرياسة والفتن، بلوى من الله لعبده.

ورجع أولئك الأشكال إلى البلاد، بعدما قويت، وكثرت التلامذة، وأخذت القلوب مواعظى، وتبين لهم أن هذا كان منهم بغياً وحسداً، فلم ينفذ بعد ذلك قول وأيسوا. وقبل ذلك كانوا صيروا السلطان والبلاد على بحال لا أجرى أن أطلع رأسى، فأبى الله إلا أن يطل كيدهم".

لقد كان الحكيم الترمذى - كما رأيت مما ذكره هو عن نفسه - كان رجلاً طلعة، مولعاً بالبحث عن الحقيقة، والسعى وراء اليقين الذى ينشرح به الصدر، ويطمئن القلب.

ولا يخفى أن رسالة "كيفية السلوك إلى رب العالمين" للحكيم الترمذى، التى كانت حبيسة خزائن المخطوطات، سوفى تضع الباحث على قضايا جديدة بالاهتمام.

وأن الباحث فى ترجمة الحكيم الترمذى يجد أن أصحاب الطبقات والتراجم، لقبوه بألقاب علمية كثيرة، وجميع هذه الألقاب تدلنا على مكانة الرجل عند العلماء وأهل المعرفة، كما أن هذه الألقاب تشير إلى عطائه فى العلم والسلوك والخلق

والطريق. وقد عرف أهل الفضل هذا عن الحكيم، فأطلقوا عليه ما أطلقوا من ألقاب، لها دلالتها وحقيقتها.

فالسبكي في طبقات الشافعية ذكر عنه بأن "أحدث الزاهد أبو عبد الله الحكيم الترمذى، الصوفى، صاحب التصانيف"^(١).

والذهبي في "تذكرة الحفاظ" قال عنه: "إنه الإمام الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف"^(٢).

وأين حجر في "لسان الميزان" ذكر من ألقابه: "المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبد الله"^(٣).

"ومن الألقاب الملازمة التي لا يكاد يذكر بدونها، والتي لا تطلق إلا عليه إذا ذكرت منفردة عن اسمه، فهي: الترمذى والحكيم معاً، ويختلف استعمالهما تقدماً وتأخيراً، بل يتغير وضع لقب الحكيم فى الاستعمال، حيث يستعمل أحياناً قبل الاسم، وأحياناً بعده"^(٤).

أما لقب الترمذى فلأنه كان من عادة العلماء أن تنسب العالم إلى بلده لعدة أغراض، منها: أمانة النقل، وتمييز المصادر، ونسبة الشئ إلى صاحبه الحق عن اشتباه الأسماء، مع اختلاف البلدان، وعند توجه النقد بعد ذلك إلى سنده أو متنه، وغير ذلك من الأغراض العلمية التي لا تكاد تحتاج إلى تنبيه، ولم يثر هذا اللقب شيئاً من

(١) السبكي: "طبقات الشافعية" ج ٢ ص ٢٤٥.

(٢) الذهبي: "تذكرة الحفاظ" ج ٢ ص ٦٤٥.

(٣) ابن حجر: "لسان الميزان" ج ٢ ص ٣٠٨.

(٤) الدكتور بركة: "الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية" ج ١ ص ٥٢.

المشاكل يلفت النظر إليه أو إلى البحث فيه" (١).

أما تلقيب الترمذى بالحكيم، فهو أكثر الألقاب استعمالاً، وأعظمها شيوعاً وانتشاراً. وقد حظى هذا اللقب بالبحث والدراسة عند بعض المهتمين بالدراسات العلمية، فقالوا في سبب تلقيب الترمذى بالحكيم: "إنه كان أكثر اهتمامه هو تبين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنساني، وربط بعض ذلك ببعض، وهو على ما يظهر كان على معرفة بتركيب الجسم، مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب" (٢).

وقالوا أيضاً في سبب تلقيبه بالحكيم: "لأنه كان حريصاً على أن يجمع بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية وبين المنهج العقلي الذي جد في عصره" (٣).

وقالوا: "لأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية، فكان بالتالي الممهّد لمذهب العرفان في التصوف الإسلامي" (٤).

ولاشك أن البحث العلمي يرفض مقولة القائلين: بأن الحكيم الترمذى سمى حكيماً. لأنه بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية.. وهذا القول غير دقيق، لأن الكندي المتوفى حوالي ٢٥٣هـ، وأبا الهذيل العلاف المتوفى عام ٢٣٤هـ -

(١) الدكتور بركة: "الحكيم الترمذى ونظريته في الولاية" ج ١ ص ٥٢.

(٢) الحكيم الترمذى: كتاب الرياضة وأدب النفس، تحقيق الدكتور أحمد السايح ط الدار المصرية اللبنانية.

(٣) الحكيم الترمذى: حقيقة الأدمية، تحقيق الحسيني، المقدمة ص ٧ - مطبعة التجارة بالإسكندرية.

(٤) الحكيم الترمذى: ختم الأولياء، هامش ص ٤ مقدمة الدكتور عثمان يحيى.

وابراهيم النظام المتوفى عام ٢٥٦هـ، كانوا أول من تأثر بالفلسفة اليونانية في عصرهم، ولقد أشارت المصادر إلى ذلك، فضلاً عن أن آرائهم ذاتها تؤكد ذلك التأثير. ومع ذلك فإن العلاف والنظام لم يلقب واحد منهما بلقب الحكيم، أما الكندي فهو وحده الذى لقب به، بوصفه أول فلاسفة العرب والإسلام، وعلى ذلك فإن إرجاع تسمية التزمذى بالحكيم إلى ذلك السبب ليس صحيحاً^(١).

ونجد كذلك أن تلقيب التزمذى بلقب الحكيم بسبب أنه كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب.. نجد هذا الإرجاع بعيداً، وذلك كما يذكر أحد العلماء: "أن الحكمة غير الطب، وأن الحكيم غير الطبيب.

وقد يجتمعان فى فرد واحد باعتبارين لا باعتبار واحد، فالحكيم قد يكون طبيباً إذا تعلم الطب، فيدعى طبيباً كما يدعى حكيماً، وقد لا يكون طبيباً إذا أهمل تعلم الطب، وقد يكون الطبيب حكيماً إذا أعد نفسه هذا الإعداد، وقد يكون خالياً من الحكمة إذا لم يكن لديه هذا الاستعداد، فلا يدعى بالحكيم، وإذا دعى بالطبيب، على أنه يغلب على من جمع الطب والحكمة أن يلقب بأشرف اللقبين. وهو الحكيم، فالجهة بينهما منفكة^(٢).

فالتلقيب بالحكيم لا يحتمل التلقيب بالطب ضمناً إلا بقرينة من القرائن، كما إذا اشتهر بذلك أو عرف عنه. وقد يكون هذا هو السر فى أن كثيراً من المتزججين للفلاسفة، عند ترجمتهم لمن يكون فيلسوفاً وطبيباً معاً، وذلك خوفاً أن يتبادر إلى الذهن أنه كان تلقيب التزمذى الحكيم كان بسبب معرفته بالطب إلا

(١) الحكيم التزمذى: علم الأولياء، تحقيق الدكتور سامى نصر لطف المقدمة ص ٢٣.

(٢) الدكتور بركة: الحكيم التزمذى ونظريته فى الولاية، ج ١ ص ٥٥.

بقريته، وذكر معرفته لأجزاء البدن لا يصلح قرينة على ذلك، إذ أن معرفة أجزاء البدن من المعارف العامة^(١).

ومن هذا كان تلقيب الترمذى بالحكيم يعود إلى أسباب أخرى غير الطب وغير الفلسفة الإغريقية. وقد جد الباحثون في الوصول إلى معرفة هذه الأسباب، ومحقق كتاب "علم الأولياء" للحكيم قد أرجع السبب في ذلك إلى عدة عوامل، جاء فيها قوله:

١- ولعلنا نرجح السبب في ذلك إلى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفوس الإنسانية، واستكناه باطنها لمعرفة عللة مرضها، وكيفية معالجتها، وتلمسه العلاج في أساليب فلسفية، وفي مفاهيم عقلية وروحانية كالتطهير والتأديب والتهذيب والرياضة الروحية والمجاهدة الذاتية.

٢- كما أننا نرجح أن يكون الترمذى قد لقب بالحكيم لنتجه في الحديث عن الإنسان: مفهومه وكيفية خلقه، وتسويته، وتقسيم أدوات معرفته بين حواس ظاهرة وأخرى باطنة، فقد كان حديث الترمذى عن الحواس الباطنة حديثاً طريفاً كل الطرافة، وكانت معظم آرائه فيها أصيلة كل الأصالة حين قسمها إلى صدر وقلب، وفؤاد ولب، وجعل لكل أداة من هذه الأدوات درجة من المعرفة ومرتبة من حيث اليقين والصدق.

٣- وكذلك فإن تحليلاته الرائعة والعميقة للألفاظ، والمصطلحات تدل على خبرة واسعة، ودراية شاملة بالأشياء والأسماء وبالمعاني...

٤- ثم إن كثيراً من الأمثلة التي كان يسوقها الترمذى بقصد توضيح فكرة أو

(١) الدكتور بركة: الحكيم الترمذى ونظريته في الولاية، ج ١ ص ٥٥.

تبسيط رأى، إنما تدل على منحى تجريبي في تفكير الزمدي، كما تدل أيضاً على خبرة بالنفس الإنسانية، وعلى وعى بالعقل الإنساني، وكيف أن الإنسان يفتقر دائماً - في تصديقه بمعظم الأشياء - إلى إستدلالات، وأمثلة من الواقع، لكي يمكنه تصور الفكرة وتعقلها، ومن ثم الاعتقاد بها.

فالتجديد كما نعلم يبدأ من الواقع، ويرتبط به ارتباط الكليات بالجزئيات التي استخلصت منها، وينتمي الواقع إلى الفكر انتماء الجزئي إلى الكلي...

٥- وما يمكن أن يضاف إلى أسباب تسمية الزمدي بالحكيم، تلك التقسيمات الطريفة للعلم، وتقسيمه الحكمة إلى عليا ودنيا، ولعله قد وصل في حياته إلى الحكمة العليا، وحصل على هدفه الأسمى، ومن هنا استحق أن يكون حكيماً لانساق آرائه مع هدفه منها، ومع المنهج الموصل إلى تحقيق هذا الهدف^(١).

والدكتور عثمان إسماعيل محقق كتاب "ختم الأولياء" يذكر في هامش المقدمة: أنه يرى أن لقب الحكيم أسند إلى الزمدي خاصة، لأن التعاليم الصوفية قد خطت على يديه خطوة حاسمة في سيرها الموفق المطرد، فهي عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية بنفعل لها الصوفي في جلوته، أو مشاعر ذاتية يحس بها في خلوته، بل حقائق موضوعية لها كيائها المستقل وعالمها الخاص، وحكمة الزمدي في تصوفه تبدو في هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية، وفي هذا التصوير الرائع لمناهج السلوك الروحي، وأخيراً في هذا التمييز الحاسم بين أنماط الحكمة ودرجات المعرفة^(٢).

(١) راجع الدكتور سامي نصل لطف - مقدمة كتاب "علم الأولياء ص ٢٣ و ٢٤ ط مكتبة الحرية.

(٢) راجع الدكتور عثمان إسماعيل - مقدمة كتاب "ختم الأولياء" هامش ص ٥ ط بيروت.

وقد يكون واحدا من هذه الأمور سبباً في تلقيب الترمذى بالحكيم، وقد تكون كلها، وقد يضاف إليها غيرها، والذي يبدو واضحاً لأهل العلم: أن المراد بحكمة الحكيم هو الحكمة الإسلامية التي انطلقت من القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ ومادة "الحكمة" موضوع لمنع يقصد به إصلاح.

الحكمة: العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن، وطاعة الله، والفقه في الدين، والعمل به، أو الخشية أو الفهم، أو الورع، أو العقل، أو الإصابة في القول والفعل، والتفكر في أمر الله وأتباعه^(١).

والحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل^(٢) ومعرفة آفات النفس والشيطان والرياضيات، وقيل: هي معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به^(٣).

والحكمة - عند الحكيم الترمذى - حكمتان، كما أن العلم علمان: علم بالله، وعلم بأمر الله، ولكل علم حكمة، والعمل ما ظهر، والحكمة ما بطن منه. وكما أن العلم علمان، فكذلك الحكمة حكمتان: حكمة من العلم به، وهي الحكمة العليا، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره وصنعه^(٤).

فالعلم عند الترمذى هو معرفة ظواهر الأشياء والموجودات، أما الحكمة فهي العلم بجواهر الأشياء وحقائقها الداخلية^(٥).

(١) أنظر الفيروز بادی - بصائر ذوی التمییز ج ٢، ص ٤٨٧ ز ٤٩١ ط المجلس الأعلى بالقاهرة.

(٢) راجع الشیرازی البیضاوی - أنوار التنزیل ص ٥٩ ط الحلبي ١٣٧٥ هجرية.

(٣) أنظر الدكتور عبد النعم الحفنی - معجم مصطلحات الصوفية ص ٨٠ ط دار المسيرة - بيروت.

(٤) الحكيم الترمذى - الكلام على معنى لا إله إلا الله أو شفاء العليل ص ٣٣ ط مطبعة حسان.

(٥) الدكتور سامی نصر لطف - مقدمة كتاب علم الأولياء ص ٨٣.

ومرتبة الحكمة عند الزمذى تعود إلى: "حكمة تتولد من كثرة التجارب، وحكمة تتولد من صفاء المعاملة، وهذه تدلك على الآخرة، وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة وأنها الحق لأهلها، وهذه الحكمة تدلك على التقرب والصفات، ووجود بقربة الحق، وهى أعلاها وأجلها.

والتي تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيا، وهى أدناها، والثانية على الآخرة، والثالثة على الجود والحق^(١).

والحكمة التى تتولد من القرب والمشاهدة هى المتصلة بالحق، وهى الحكمة العليا "حيث انكشف كل غطاء دق أو جل، وخشعت النفس لله، وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى، وفتح لهم من الحكمة العليا، قال جل جلاله وعظم شأنه، وفتح وتعالى كبرياؤه، وتقدست أسماؤه، وسمت كلماته، سبحانه بحمده ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [سورة آل عمران - من الآية ١٦٤].

فالكتاب ظاهر القرآن، والحكمة باطنة، وهى التى يقال لها حكمة الحكمة، وهى الحكمة العليا، فلما آتاهم من الحكمة العليا عاينوا مافى الملكوت بأبصار القلوب، فصارت تلك المعاينة بصيرة للنفس^(٢).

فالحكمة مصطلح إسلامى أصيل، والحكيم إنسان أعطى ينابيع الحكمة، وقد جاء الأصل السادس والثمانون والمائتان فى كتاب "نوادير الأصول" للحكيم الزمذى تحت عنوان "فى عثرة الخليم وتجربة الحكيم":

فالحكمة من نور الجلال، فإذا أعطى العبد انفجرت ينابيع الحكمة على

(١) الحكيم الزمذى - معرفة الأسرار ص ٨٤ و ٨٥ تحقيق الدكتور الجيوشى ط النهضة العربية.

(٢) الحكيم الزمذى - علم الأولياء ص ١٣٩.

قلبه، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه، فهي جاثمة متراكمة، ومالم يأخذ بالتجارب لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة، لأن النفس بلهاء غنمية مشغولة بالشهوات، فكيف تدرك الحكمة، والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم^(١).

ودلتنا أبحاث العلماء على: "أن لقب الحكيم لا يطلق على كل فرد، بل يطلق على أفراد قلائل من البشر، فهو إذن من الألقاب الإصطلاحية التي تطلق لمعنى خاص يلاحظ فيمن تطلق عليه"^(٢).

لا يخفى أن هذه المعاني الخاصة وجدت عن الحكيم، ولذلك استحق هذا الاصطلاح الخاص. فقد كانت آيات القرآن الكريم والسنة النبوية - بشتى ما دار حولهما وما جاء عنهما، ولهما، وبهما من معارف وعلوم - مصدراً أصيلاً وخصباً لآرائه وحكمته، وأقواله، وسلوكه وتصانيفه.

كان مفكراً واسع العطاء، ومن ثم أطلق عليه الحكيم، ولقب الحكيم من الألقاب النادرة التي يحتاج من تطلق عليه إلى قدرات خاصة، وفتوحات إلهية، ومواهب متعددة، ونحسب أن الحكيم التزمذى كان كذلك..

وكتاب "غور الأمور" توجد منه ثلاث نسخ اثنتان منها فى مكتبة أسعد أفندى، والنسخة الثالثة فى المكتبة الوطنية فى باريس.

والنسختان اللتان فى مكتبة أسعد أفندى واحدة منهما تحمل عنوان "غور الأمور" والنسخة الأخرى تحمل عنوان "الأعضاء والنفس".

(١) الحكيم التزمذى - نوادر الأصول ص ٤١٥.

(٢) الدكتور بركة - الحكيم التزمذى وطريقته فى الولاية ج ١ ص ٥٦.

والباحث يرى أن عنوان "غور الأمور" هو الصحيح، وقد يكون عنوان "الأعضاء والنفس" من وضع النساخ. ومما يشير إلى صحة التسمية "بغور الأمور" أنه ورد في كتاب "شرح الصلاة ومقاصدها" للحكيم الترمذى اسم كتاب "غور الأمور" وكذلك في كتاب "منازل العباد من العبادة" وقد تم تحقيقه بعناية الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح.

وفي "غور الأمور" ذكر الحكيم الترمذى أنه سيناقش مواضيع لكل منها غور بعيد. وهذا يعطى إشارة واضحة إلى أن التسمية "بغور الأمور" هي أقرب إلى المراد.

وكتاب "غور الأمور" يتناول صفة القلب، وأسمائه، وصفة أحواله، وصفة النفس، وصفة إبليس وجنوده، وبيان سلطانه عليها وأحوالها، وكذلك صفة المعرفة، وصفة النور وصفة أخلاق آدم، وصفة جذور المعرفة، وصفة العقل، وصفة مدائن المعرفة، وتفسير قضايا تتصل بالمعرفة والنفس.

وهو كتاب رائع فى موضوعه يعالج قضايا النفس الإنسانية والمعرفة. وقد واجهتنا صعوبات كثيرة. ونحن نقوم بتحقيق هذا الكتاب القيم ومن هذه الصعوبات تلك السقطات، والكلمات غير الواضحة أو المطموسة والتي لم يكن من السهل فك طلاسمها.

ولكن أمكن - والحمد لله رب العالمين - التغلب عليها من السياق المؤلف للحكيم الترمذى.

هذا الجهد المضنى لم يكن سهلاً ميسوراً لولا طول صحبتنا للحكيم الترمذى وطول المعاشة مع مؤلفاته ومصنفاته. فكان ذلك عوناً على سبر الأغوار.

ويعتبر الحكيم الترمذى من أعظم الشخصيات الإسلامية التى يعتز بها التاريخ الإسلامى.

فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى. كانت بداية لتفتح ينابيع المعرفة التى ظلت مؤثرة فى الحضارة الإنسانية قروناً طويلة.

ظهر الحكيم فى فترة حرجة كانت أحوج ما يكون إلى الحكيم. حيث خط المسار، ووضع للنفس المنهاج، حتى تستجيب لنوازعها الخيرة.

وقد ولد الحكيم "أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر الترمذى" ^(١) من عائلة تنتمى إلى العرب ^(٢).

ويرجع أهل البحث أن يكون الحكيم الترمذى قد ولد عام خمسة ومائتين، وأنه عمر مائة وخمسة عشر عاماً وأنه توفى عام عشرين وثلاثمائة للهجرة ^(٣).

وكان أبوه من رواة الحديث الذين رحلوا فى سبيله، واشغلوا بروايته، فقد ترحم له الخطيب البغدادى، وذكر أنه نزل بغداد وحدث بها ^(٤).

وقد روى الحكيم كثيراً عن والده فى كتبه المتعددة، وكانت أمه أيضاً من أهل الحديث ^(٥).

(١) السبكي "طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٤٥ الطبعة الأولى البابى الحلى والذهبي تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٦٤٥ ط الهند.

والبغدادي هداية العارفين ج ٢ ص ١٦٥ و١٦٦ ط تركيا.

وابن حجر لسان الميزان ج ٢ ص ٣٠٨ ط الهند.

(٢) الحسيني المعرفة عند الحكيم الترمذى ص ١٣ ط دار الكتاب العربي.

(٣) الدكتور أحمد السايح منازل العباد من العبادة ص ٨.

(٤) البغدادي تاريخ بغداد ج ١١ ص ٣٧٣ ط الخانجي بمصر.

(٥) الدكتور أحمد السايح منازل العباد من العبادة ص ٧ ط دار النهضة.

فقد روى عنها، وكذلك كان جده لأمه من أهل الحديث وثبت أنه أخذ الحديث عن بعض مواطنيه^(١).

ومن كل ذلك يتبين لنا : أن الحكيم الترمذى فتح عينيه أول ما فتح على حلقات العلم، والحديث، والدرس، وأنه أحيط بهذا الجو النقي. وتلقت مسامعه أول ما تلقت كلمات الله، وأحاديث رسول الله ﷺ يهتف بهما أبوه، كما تهتف بهما أمه.

وإن الباحث في حياة الحكيم الترمذى العامرة بالعلم يدرك أن طفولة الحكيم لم تكن عادية. لقد فتح عينيه على العلم منذ بدا يدرك، لأن أباه أحد علماء الفقه، ورواة الحديث.

وقد كان أبوه شيخه الأول. ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ في صباه يقول الحكيم " كان بدو شأنى أن الله تبارك اسمه: قيض لى شيخى - رحمة الله عليه - من لدن بلغت من السن ثمانياً يحملنى على تعلم العلم، ويعلمنى ويحسنى عليه، ويدب ذلك فى المنشط والمكره، حتى صار لى عادة وعوضاً عن اللعب فى وقت صباى، فجمع لى، فى حدائتى علم الآثار، وعلم الراى"^(٢).

فكان لتوجيه والد الحكيم له منذ الصبا الباكر أثر بالغ فى تعلق الحكيم بالمعرفة وطلبها. والرغبة فى الاستزادة من العلم. والاستعداد للرحلة من أجل ذلك، كما كانت العادة جارية فى زمانه. والعلم لا وطن به، والرحلة فى طلبه، أمر لا بد منه، حتى يتسنى للعلماء اكتساب الفوائد، ومباشرة التلقين، والمحاكاة من

(١) الحسينى المعرفة عند الحكيم الترمذى .

(٢) الحكيم الترمذى بدو شأن أبى عبد الله ٢٢ ص ١٦ .

الفطاحل الأعلام.

وقد أخذ الحكيم الترمذى عن كثير من شيوخ المحدثين فى عصره، والذى يتتبع شيوخه من المحدثين الذى روى عنهم، يجد أنهم كثرة.

ورأينا أن علماء المعاجم والطبقات الذين وضعوا الكلمات فى مواضعها، وكانوا أدرى بسير العلماء، وأعرف بمكانتهم، ومنزلتهم. ورد فى كتبهم، ومؤلفاتهم، ما يوحى بأن الحكيم الترمذى كان يتمتع بالتقدير والإجلال، لما توفر له من علم ودين، بين شيوخ التصوف، والعلماء المعاصرين له، والذين جاءوا بعده.

وهذا هو أبو بكر الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ يذكر الحكيم فى الباب الرابع من كتابه "التعرف لمذهب أهل التصوف": فىمن صنف فى المعاملات، ويعتبره أحد الأعلام المشهورين، المشهود لهم بالفضل، الذين جمعوا علوم المواريث والاكساب. وسمعوا الحديث، وجمعوا الفقه، والكلام، واللغة، وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم^(١).

ويذكره السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ فى "طبقات الصوفية" فيقول: "هو من كبار مشايخ خراسان، وله التصانيف المشهورة"^(٢).

وأبو نعيم الأصبهاني المتوفى ٤٣٠ هـ يذكره فى "حلية الأولياء" بقوله: "أنه مستقيم الطريقة يرد على المرجئة وغيرها من المخالفين، تابع للآثار، وله التصانيف المشهورة"^(٣).

(١) الكلاباذى "التعرف لمذهب أهل التصوف" ٢٢ ص ٧ .. ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) السلمى طبقات الصوفية ص ٥١ ط كتاب الشعب.

(٣) أبو نعيم [حلية الأولياء] ج ١ ص ٢٣٣.

وقال عنه القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ في الرسالة القشيرية "بأنه من كبار الشيوخ، وله تصانيف في علوم القوم"^(١).

والهجویری المتوفى سنة ٤٧٠ هـ تقريباً في "كشف المحجوب" يقول عنه "ومنهم: الشيخ ذو الخطر، والفاني عن أوصاف البشر: أبو عبد الله محمد بن علي الترمذی، رضي الله عنه. كان كاملاً وإماماً في فنون العلم، ومن الشيوخ المحتشمين، وله تصانيف كثيرة طيبة، وكرامات مشهورة، مثل كتاب "ختم الولاية" وكتاب "النهج" وكتاب "نوادير الأصول". وقد عمل كتباً أخرى كثيرة. ومحمد در، يتيم، إذ لا قرين له في العالم كله، وله كتب في علوم الظاهر، وإسناد عال في الأحاديث"^(٢).

والإمام الشعراني يذكره في "الطبقات الكبرى" فيقول عنه: "له التصانيف المشهورة"^(٣).

وقال عنه السبكي في طبقات الشافعية: "احدث، الزاهد، أبو عبد الله الترمذی الصوفي، صاحب التصانيف"^(٤).

وذكره ابن حجر في "لسان الميزان" بقوله "أنه كان إماماً من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار في أصول الدين ومعاني الحديث، وقد لقي الأئمة الكبار"^(٥).
والذهبي في "تذكرة الحفاظ" يقول عنه: "الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف"^(٦).

(١) القشيري الرسالة القشيرية ص ٢٢ ط دار الكتاب العربي.

(٢) الهجویری كشف المحجوب ج ١ ص ٣٥٣ ط المجلس الأعلى.

(٣) الشعراني الطبقات الكبرى ج ١ ص ٧٨ ط صبيح.

(٤) السبكي طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٥.

(٥) الأئمة الكبار الذين يمكن الرجوع إليهم في أمهات الكتب.

(٦) الذهبي تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٦٤٥.

والشيخ زكريا الأنصارى يقول عن الحكيم فى "نتائج الأفكار القدسية" شرح الرسالة القشيرية: "إنه الصوفى صاحب التصانيف المشهورة، اشتهر بملازمة العبادة، بين العباد، وتفرد من بين الصوفية بكثرة الرواية، وعلو الإسناد، ناسك سلك طريق القوم، وصل التجهد وهجر النوم، ورحل فى طلب الحديث والعلم، وتلفح بمروط التقوى والحلم، لقي الأكابر، وأخذ عن أرباب الخابر، ومع ذلك كان صدرأ معظماً، وصوفياً محدثاً ضخماً كثير الكيس واللطافة، غزير المعارف التى تحف أخلاقه وأعطافه، تحلى بعقود جيد زمانه، وتأرجت الأرض بعرف عرفانه، سمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره، وهو من أقران البخارى^(١) .

وابن الجوزى فى "صفة الصفوة" يقول عنه: "أنه من كبار مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة^(٢) . وذكره بكل تقدير وإجلال كثير من المؤرخين ومشايخ الإسلام كالجامى المتوفى سنة ٨٩٨هـ^(٣) . والمناوى المتوفى سنة ١٠٣١هـ^(٤) ، ودار شكواه المتوفى سنة ١٠٥٦هـ^(٥) . وطاش كبرى زاده^(٦)؛ وخير الدين الزركانى^(٧)؛ وابن تيمية^(٨) .

(١) الشيخ زكريا الأنصارى نتائج الأفكار القدسية ج ١ ص ١٦٤ ط بولاق سنة ١٢٩٠هـ.

(٢) ابن الجوزى صفة الصفوة ج ٤ ص ١٤١ ط حيدر أباد ١٣٥٥هـ.

(٣) عبد الرحمن الجامى نفحات الأنس ص ١٣١ ط كلكتا ١٨٥٨م.

(٤) المناوى الكواكب الدرية ورقة ٢١٢ مخطوط رقم ٢٤٩ جامعة برتستون.

(٥) دار شكواه سفينة الأولياء، مخطوط ف ٨٥.

(٦) طاش كبرى زيادة مفتوح السعادة ج ٢ ص ١٧١ ط حيدر أباد الهند.

(٧) الزركانى الأعلام ج ٢ ص ١٥٦ الطبعة الثانية.

(٨) ابن تيمية حقيقة مذهب الاتحاديين ص ٥٩ - ٦٠ ط رشيد رضا.

ويذكره العطار في "تذكرة الأولياء" بقوله "السليم السنة، عظيم الملة، مجتهد الأولياء، منفرد الأصفياء، حرم القدس، شيخ الوقت، محمد بن علي الزمذى - رحمة الله عليه - اختشم بين الشيوخ، ائتم بين أهل الولاية، الداعى بكل اللغات الشارح لمعانى الأحاديث، ورواية الأخبار، والأعجوبة فى بيان المعارف والحقائق الكاملة القبول، العظيم الشفقة، العجيب الحلم، العالى الخلق، صاحب الرياضيات، والكرامات، الكامل فى فنون العلم، والمجتهد فى الشريعة والطريقة"^(١).

وصاحب "كنوز الأولياء" يقول عنه: "من كبار المشايخ، وهو مجتهد فى الشريعة والطريقة، وله مصنفات فيهما، ولم يقلد أحداً، كان أعجوبة الدهر فى الكمالات العلمية، والعملية. وكان لا يتكلم إلا بالحكمة ولذا يقال له "حكيم الأولياء"^(٢).

فالحكيم الترمذى - كما رأيت - متعه الله بتبحر، ورسوخ فى مختلف العلوم، وقدم ثابت فى العقيدة، فكان له من الدروس والتأليف ما بز به سعة وشولاً، وعمقاً وتتبعاً، واستقصاء، وتنوعاً، وكثرة..

كان رضى الله عنه صاحب فكرة واضحة، ومنهج محدد فى رسم الصورة المثلى، للرقى الإنسانى. الذى يستطيع المؤمن الحق أن يصله، حتى يصير مثلاً حياً للخير يمشى بين الناس.

يضاف إلى ذلك قدرته على التعمق فى المعانى، والخوض فى الدقائق

(١) فريد الدين العطار تذكرة الأولياء حاجى ٩١.

(٢) البافى كنوز الأولياء ورموز الأصفياء ورقة ٨٤ مخطوط المكتبة الظاهرية.

والأسرار، واستنباطاته العميقة، وإشاراته البديعة، ونغماته الطيبة، وأفكاره اللطيفة. وهذه المثل واللطائف التي تناولها الحكيم بالشرح والتحليل، والذكر، وبحثها في كتبه ورسائله، جعلت الأبصار تتجه إليه، وتعكف على آرائه، تناقشها وتقبلها، أو تردّها، وتعنتقها أو ترفضها، بدأ ذلك في حياته وبعد مماته^(١).

أما في حياة الحكيم فإننا نرى أن الدراسات تقول لنا: أنه كان للحاقدين والحاسدين عليه منهج يقوم على إثارة العامة، وحكام البلاد، ليحققوا من وراء ذلك مآرب لهم، ويصلوا إلى أغراض لهم.

ونتيجة لهذا المنهج الخطير. تعرض الحكيم التزمذى إلى ألوان من المضايقات، والاتهامات، والنفي، والحيلولة بينه وبين الناس. وكان ذلك حينما بدأ الحكيم التزمذى، يروض نفسه، ويتخذ مجلساً، يتلقى فيه الأخوان السالكون العلم ومذكراته، والدعاء، والتفرغ.

ويبدو - كما يذكر العلماء: إن هذه المجالس، كانت تحفل بكثير من إشارات الصوفية، ونحات العارفين، في أمور لم يألّف الناس الخوض فيها، وتناولها على هذا النحو الذى يطلق فيه العنان لإشراق النفس، ونور القلب فيلهم أهله فهماً في أية من كتاب الله أو حديثاً من أحاديث رسوله الكريم، أو تعليلاً لأمر من الأمور، التي كانت مجالاً يخوض فيه الناس في ذلك الوقت.

وكانت مثار أخذ وردن بين العلماء والباحثين، وتختلف نظرتهم إليها، وحكمهم عليها، تبعاً لاختلاف المنزع والمنهج، والقدرة على الاستنتاج، وحكمهم عليها، تبعاً لارتباط الباحث بمنهج معين، والسير على منوال خاص، لايجاد عنه في

(١) الدكتور الجيوشى الحكيم التزمذى دراسة لآثاره وأفكاره ص ٣٢٨.

تفسير الأمور وتعليلها.

وقد أدى هذا الاختلاف في المنهج والقدرة على الاستنتاج. إلى أن يتناول بعضهم الحكيم بالنقد والتجريح، وأحياناً بالإيذاء والانهام بالهوى والبدعة، مما سبب كثيراً من الحزن، والألم، للشيخ الكبير، ووصل الأمر بهؤلاء الحاقدين والحاسدين أنهم لم يتورعوا عن الرشاية به، والافتراء عليه.

لكن الحكيم اعتبر هذه الفترة بمثابة تمحيص، وامتحان، ومحاولة للتغلب على نوازع النفس، وامتلاك زمامها، وإخضاع رغباتها، حتى لا تجمع به أو تستهويها، مظاهر العبادة والنسك، فتفسد عليه طريقه، وتصرفه، عن غايته التي كرس جهوده كلها للوصول إليها.

وحينما وضحت الأمور، وانكشف التآمر، وعرف الزيف الذي لفقه الحاقدون، وتبينت الرشايات التي لاحقت الحكيم، وقف القوم يحسون بحلاوة الحديث، وطعم الكلمات، فأقبلوا على الحكيم يطلبون الحكمة لتستير القلوب.

وإذا كان لبعض الأئمة أن يعلو شأنهم، ويتألق سناهم، وتبقى على الأيام ذكراهم بما صنفوا من الكتب، أو خلفوا من الآثار. فإن الحكيم التزمى علم من الأعلام، تشبع من الثقافة الإسلامية، وكتاب الله وسنة الرسول، عملاً وسلوكاً، وتجربة وطريقاً، فأهله ذلك للتصنيف، واجتمع له من المؤلفات ما لم يجتمع لغيره من الأفاضل، وترك للتراث الإسلامى، ما يزيد على ستين كتاباً وأكثر من مائتى رسالة.

ولاشك أن مؤلفات الحكيم كانت ذات تأثير فيمن كانوا حوله من شيوخ، أو مريديه يحملون ذكره وتوجيهاته.

ويذكر المستشرق نقولا هير "أن تأثير التزمى على الصوفية بعده عن طريق

مؤلفاته أوضح من تأثيره عليها بوساطة مريديه وتلاميذه. فإن كثرة استنساخ كتبه، حتى إلى عهد قريب تقوم شاهداً على ما لقيته عند الناس من استحسان ورواج^(١).
ويؤكد محقق كتاب "ختم الأولياء" الدكتور عثمان يحيى: أن تأثير حكيم ترمذ في البيئة العلمية الإسلامية كان بوساطة كتبه ورسائله العديدة التي حفظ الزمن القسم الأكبر منها لحسن الحظ، وأن بقاء أكثر مؤلفات الشيخ الترمذى فى دور المكاتب، إن فى الشرق، أو فى الغرب لدليل بارز، على عناية العلماء البالغة بها، وشيوعها فى الأوساط الإسلامية المختلفة^(٢).

ويرى المستشرق ماسنيون : أن الحكيم الترمذى علامة واسع الإطلاع. يكاد يكون صاحب مذهب غزير الإنتاج، وكتبه لها دورها^(٣).
فمؤلفات الحكيم الترمذى كانت تحظى بتقدير عميق فى المدارس الإسلامية وقد أثرت كتبه فى كثير من علماء التفسير والتصوف ورجال الطريق.
والله ولي التوفيق.

أ. د. أحمد عبد الرحيم السايح أ. د. أحمد عبده عوصه

(١) الدكتور نقولا هير مقدمة كتاب "الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب" ص ١٢.

وقد تم تحقيق هذا الكتاب بعناية الدكتور أحمد السايح.

(٢) الدكتور عثمان يحيى مقدمة "ختم الأولياء" ص ٣٨.

(٣) المستشرق ماسنيون "دراسات فى التصوف الإسلامية" ص ٢٨٣ ، ٢٩٤.

مقدمة الكتاب

الحمد لله على الحمد وأهله، أما بعد ..

فأما ما سألت عنه من صفة القلب وأسمائه، وصفة أحواله، وصفة النفس، وصفة إبليس وجنوده، وبيان سلطانه عليها، وعللها، وشأنها وأحوالها، وبدنها، وصفة المعرفة، وما في حشوها، وصفة النور ولباسه، وصفة أخلاق آدم المائة خلق، وصفة جنود المعرفة، وصفة العقل ومعدنه ومجلس قضائه وأعوانه، وصفة مدائن المعرفة وقراها وآثارها وعمّارها. وبيان صفة المعسكر، وبيوت الدواوين وخزائن الطاعات ومعادن الحكمة، وسجون النفس، وخلق آدم وبيان اسمه. وترجمة لا إله إلا الله.

وبيان تفسير قوله: ﴿ألست بربكم﴾.

وتفسير اسم إبراهيم خليل الرحمن، وتفسير اسم إبليس، واسم فرعون، وتفسير قوله: ﴿الله نور السموات والأرض﴾، وتفسير شجرة الزيتون، وتفسير شجرة طوبى.

فهذه ثلاثة وثلاثون مسألة؛ لها غور بعيد. لا يمكن استقصاؤها لبعدها، وسنذكر منه ما يفهمه ذو اللب.

فإن الفؤاد أول مدينة من مدائن النور، وللنور سبع مدائن، أولها الفؤاد، ثم الضمير، ثم الغلاف، ثم القلب، ثم الشغاف، ثم الحبة، ثم اللباب. فالضمير قلب الفؤاد، والغلاف قلب الضمير، والقلب قلب الغلاف،

والشغاف^(١) قلب القلب، والحبة قلب الشغاف، واللب قلب الحبة وهو معدن النور.
فهذه سبع مدائن بعضها في بعض، ولكل واحدة منها باب، ولكل باب
مفتاح، وعلى كل باب ستر، وبين كل واحد حائط، ومن وراء كل حائط خندق.

صفة الأبواب

صفة الأبواب: فأما باب الفؤاد فمن نور الرحمن، وأما باب الضمير فمن نور
الرافة، وأما باب الغلاف فمن نور الجود، وأما باب القلب فمن نور المجد، وأما باب
الشفاف فمن نور العطاء، وأما باب الحبة فمن نور الألوهية، وأما باب اللباب فمن
نور العطف ونور العطف، من نور القربة، ونور القربة من نور الشفقة، ونور الشفقة
من نور الإرادة، ونور الإرادة من نور نور إرادة الإرادة، وهو من نور الحبة، ونور
الحبة من نور المنّة. وهم علم دقيق لا يمكن فحصه.

صفة الستور:

فأما ستر باب الفؤاد فالجمال، وأما ستر باب الضمير فالخلال، وأما ستر
باب الغلاف فالسلطان، وأما ستر باب القلب فاهيبة، وأما ستر باب الشغاف
فالقدرة، وأما ستر باب الحبة^(٢) فالعظمة.
وأما ستر باب اللباس فالحياء، والحياء من ستر الملك.

(١) يقال في اللغة: شَغَفَ الحُب - شَغَفًا: أصاب قلبه. وشَغِفَ به شَغَفًا: أحبه وأولع به، فهو مشغوف.
والشَغَاف: سُوداء القلب وحَبِّته.
(٢) الحَبَّة: واحة الحَب. ومن الأوزان: قدر شَعِيرَتَيْنِ وَسُطْنَيْنِ. وَحَبَّة القلب: مُهَجَّتُهُ وَسُوَيْدَاؤُهُ.

صفة المفاتيح: وأما مفتاح باب الفؤاد فالإقرار، وأما مفتاح باب الضمير فالتوحيد، وأما مفتاح باب الغلاف فالإيمان، وأما مفتاح باب القلب فالإسلام، وأما مفتاح باب الشغاف فالإخلاص، وأما مفتاح باب الحبة فالصدق، وأما مفتاح باب الباب فالمعرفة.

صفة الصدر: فأما الصدر فإنه مصدر الأمور، ومعدن المشورة والقضاء ومجلس الملك وهو العقل، وهو ريض^(١) المدنية وما والاها.

وللمدينة فيه أربعة أبواب شارعة إليه، وهو ميدان عظيم، ومجلس بهي، فيه قناديل الرحمة، ومصابيح النور، تزهر فيه من النور الذي في القلب، وشموع لواحده تبرق بضوءها ونورها.

من ذلك ما روى محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وروى الربيع عن أبي بن كعب في قول الله عز وجل "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة"^(٢).

قال: المصباح النور، والزجاجة القلب، والمشكاة الصدر.

وروى عن أسباط السدي في قول الله عز وجل: "الله نور السموات

(١) الرِّيض: مأوى الغنم وغيرها من الدواب. وكل ما تأوى إليه، وتسريح لديه من أم وزوج، وبنت، وقراية، وبيت وغيره. وما حول المدينة هو ريض.

(٢) سورة النور آية: ٣٥.

نجد توضيحاً لما قاله الحكيم الترمذي في التفاسير حيث أورد الإمام ابن كثير كلاماً مشابهاً عن أبي بن كعب رضي الله عنه في تفسير هذه الآية الكريمة فقال "قال أبي بن كعب: المصباح النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره" (٢٩/٢).

والأرض" قال المشكاة الصدر، والزجاجة القلب، والمصباح هو النور.

يقول: فكلما دخل هذا المصباح في الزجاجة فأضاء فكذلك أضاء الصدر ثم ترك الضوء من الكوة وهي المشكاة فأضاء البيت.

وكذلك نزل النور من الصدر، فأضاء الجوف كله وهو النفس وقال تعالى "أفمن شرح الله صدره للإسلام" (١) وفيه معادن ودرجات ومحاصل من قوله: ﴿وحصل ما في الصدور﴾، وفيه ساحة لسماطى (٢) الملك، ومعسكر وموضع قضائه، وتزيين الأعمال ومحشد الجيوش، ومحث الجنود، وستور الرحمة وله سبع حيطان، وسبع خنادق.

صفة الحيطان والخنادق:

فأما حيطانه فله سبعة حيطان حوله، ما بين كل حائط منها خندق. فأما الحائط الأول، وهو الذى بينه وبين النفس فهو من الاستعاذة، والثانى من الذكر، والثالث من الاستنصار (٣)، والرابع من الاستعانة، والخامس من المجاهدة، والسادس من التوكل، والسابع من التسليم.

(١) سورة الزمر آية: ٢٢

ونص الآية الكريمة "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين".

(٢) السَّمَاطُ: ما يمدُّ لِيُوضَعَ عليه الطعام في المآدب ونحوها. والدَّجْعُ سُمُطٌ، وأَسْمِطَى.

(٣) الاستنصار: طلب النصر، وهوى من النصر ثم أضيفت السين للطلب، وقد وردت مرتين في القرآن العظيم، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ سَيَنْصَرُخُ﴾ القصص ١٨.

﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ الأنفال ٧٢.

وأما خناده فـالظفر، والذكر، والعون، والنصرة، والهداية، والخشية، والنجاة.
فأما الظفر فهو خندق الاستعاذة من الله عز وجل ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ
بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾^(١)
فوعده على الاستعاذة سلب سلطان العدو. وسمى المستعبد مؤمناً، وحيث قال: ﴿إنه
ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾. وسمى المؤمن متوكلاً حيث قال: ﴿وعلى ربهم
يتوكلون﴾ ثم وصف سلطانه فقال: ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾^(٢).
وأما الذكر فإنه خندق الذكر من قوله تعالى ﴿فاذكروني أذكركم﴾^(٣)،
فوعده على ذكره له. ذكره لك ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾^(٤) جل ذكره
وعظمته من أن يناله أحد كما هو له أهل.
وقيل الحكمة ذكر العبد بين ذكر الرب، يذكر الرب بالرحمة. فيذكره
الرب من ذكره له بالثناء والحمد والعبادة، فيذكره الرب بالتوبة والشكر والمغفرة
والقبول. فذكر الله حرز وثيق وحصن حصين.
وأما العون وهو التوفيق فهو خندق الاستعاذة، إذا أمر بذلك في أمر

(١) سورة النحل آية ٩٩.

(٢) سورة النحل آية ١٠٠

ونص الآية الكريمة ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾.

(٣) سورة البقرة آية ١٥٢

ونص الآية الكريمة ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾.

(٤) سورة العنكبوت آية ٤٥.

ونص الآية الكريمة ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء
والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾.

الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم.

وشرط لعبده على نفسه أن تصفه له وتصفه لعبده وأن لعبده ما سأل،
فقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾^(١)؛ ثم قال: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة﴾^(٢)؛
فشهد لمن استعان به بالخشوع واليقين بلقائه، والرجوع إليه عند البعث.. فقال:
﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين للذين يظنون أنهم مُلاقا ربهم﴾^(٣).
فألهداية لمن استعان به؛ إذ قال: ﴿وأولئك هم المهتدون﴾^(٤).
وأما النصر فهو خندق الاستنصار من قوله عز وجل: ﴿إن تستفتحوا فقد
جاءكم الفتح﴾^(٥).

أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، فوجد النصر على حد الاستنصار؛ حيث
قال فقد جاءكم النصر، ثم قال: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾^(٦).
وأما الهداية فإنه خندق الجهاد من قوله تعالى ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾^(٧)

(١) سورة الفاتحة: آية ٥.

(٢) سورة البقرة آية ٤٥.

ونص الآية الكريمة ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾.

(٣) سورة البقرة: آية ٤٦.

ونص الآية الكريمة ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾.

(٤) سورة البقرة: آية ١٥٧.

ونص الآية الكريمة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

(٥) سورة الأنفال: آية ١٩.

(٦) سورة محمد: آية ٧.

ونص الآية الكريمة ﴿يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

(٧) سورة الحج: آية ٧٨.

فأمن بالجهاد حق الجهاد، ثم بين لهم منزلتهم عنده وخصوصيتهم؛ فقال مبرزاً لمنتته عليهم، طالباً لشكره منهم "هو اجتباكم" فأنتم أهل جبايتي^(١) جيتكم من بين خلقى. فأنتم عبادى المجتوبون، ثم أبرزهم والطفهم، وأظهر لهم العذر، وبين لهم الحجج فإنه لم يأمرهم ولم يحملهم إلا ما يطيقون فقال: ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾^(٢). ثم نسبت ملتهم إلى ملة أبيكم إبراهيم، وشهد لهم بالنبوة لإبراهيم ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أى كأنه أراهم من نفسه أنى بكرامة إلا بالحق بهم الأولاد، وأحفظ لهم، وأتعاهدهم. من ذلك قوله: ﴿والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بإيمان أحقنا بهم ذرياتهم﴾^(٣). ومن قوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾^(٤) أى إنما حفظت كنزهم تحت ذلك الجدار، وعينت خليلي الخضر بإقامته لسبب صلاح أبيهم، ثم قال: ﴿رحمة من ربك فإن رحمتى قريب من المحسنين﴾^(٥) ثم قال: ﴿والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾^(٦).

(١) اجتياه: اختاره واصطفاه لنفسه، وفى القرآن الكريم ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ يوسف: ٦.

ومعنى أهل جبايتى: أى أهل اصطفائى واختيارى.

(٢) سورة الحج: الآية ذاتها ٧٨.

(٣) سورة الطور: آية ٢٠.

وقراءة حفص هذه الآية الكريمة ﴿والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بإيمان أحقنا بهم ذرياتهم﴾.

(٤) سورة الكهف: آية ٨٢.

جزء من الآية الكريمة ﴿وأما الجدار فكان لفلان يمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾.

(٥) هاتان جزء من آيتين كريمتين، فقلوه ﴿رحمة من ربك بعض من آية الكهف السابقة (٨٢). وأما ﴿فإن رحمتى قريب من المحسنين﴾ فرمما أراد بذلك قوله تعالى ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ الأعراف: آية ٥٦.

(٦) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

فوعد على الجهاد، والهداية لسبيله، لا لسبيل واحد، ثم شهد له بالإحسان، ونصره بمعينه.

رجعنا إلى ما كنا فيه فقال: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾^(١) فشهد لهم بالإسلام ونسبت تلك التسمية إلى خليله إبراهيم، أى أنه أبوكم ومن أحق بتسمية الأولاد من الآباء؛ يودد خليله وملته إليهم.

ثم قال: ﴿وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾^(٢) حيث تجدد الأمم تبليغ رسل الله إليهم الحجج، وكتب الله ثم ذكر فى آخره "واعتصموا بحبل الله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير" ^(٣).

فمدح نفسه بالمولى والنصير؛ حيث يتولى أموركم الكافر والمسلم وينصركم إذا استنصرتموه، ويرضى باليسير، ويشكر الكثير، ويكرم المطيع، ويرحم العاصي، ويقبل التوبة والحسنة يضاعفها، ويحط السيئة ويدها، ويرفع الدرجات ويقل العثرة.

وأما الخشية فإنه خندق التوكل من قوله ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(٤)؛ ومن قوله ﴿وعليه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾^(٥) فشهد على

(١) سورة الحج : آية ٧٨.

(٢) سورة الحج : آية ٧٨.

(٣) ما ذكره رحمه الله ليس هو النص القرآنى الصحيح، وهو ما أراده من قوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فأصبحتم بنعمته إخواناً...﴾ آل عمران: آية ١٠٣.

(٤) بعض من آية كريمة فى سورة الطلاق: آية ٣.

(٥) النص القرآنى الصحيح مجده فى قوله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ المائدة: آية ٢٣. وفى قوله تعالى: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ يونس: آية ٨٤.

المؤمنين بالتوكل.

وأما النجاة فهو خندق التسليم؛ حيث ذكر من شأن إبراهيم وابنه عليهما السلام ﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديانه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾^(١) ثم قال: ﴿وفديناه بذبح عظيم ونجيناه من الغم﴾^(٢) ثم وعد من فعل فعله أن يعامله معاملته فقال ﴿وكذلك ننجى المؤمنين﴾^(٣) ثم شهد له بالإيمان وسماه عبده فقال ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾^(٤) ثم قال: ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾^(٥). والإحسان ههنا الإخلاص أى اختلص نفسه من نفسه، ووفى لربه بما أمره، وتوكل عليه.

[صفة الأبواب]

باب صفة الأبواب التى على الصدور والبوابين:

فإن للصدر بابين شارعين إلى النفس؛ باب الأمر وباب النهى وبوابيهما المشيئة والقدرة، وعليهما ستران، الجبروت والملكوت، وعلى البوابين لباسان من نور الوجدانية والألوهية؛ حشوهما الرأفة واللفظ والعطف والرحمة، ونسجهما بنور السلطان والعظمة والهيبة والكبرياء.

(١) سورة الصافات: الآيات الكريمات: ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) أدخل الشيخ رحمه الله آيتين كريمتين فى سورتين كريمتين فى آية واحدة؛ ف قوله ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ هو الآية الكريمة رقم ١٠٧ من سورة الصافات.

وقوله ﴿ونجيناه من الغم﴾ هو جزء من قوله تعالى عن ذى النون عليه السلام ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ الأنبياء ٨٨.

(٣) بعض من آية الأنبياء السابقة رقم ٨٨.

(٤) الصافات : آية ١١١.

(٥) الصافات: آية ٨٠.

باب صفة أساس الحيطان:

فإن أساس الحيطان على سبعة أشياء؛ على الشكر، والرضا، والصبر، والإخلاص، والنية، والقبول، والإقرار.

باب الهمة والتعاهد لها:

فأما استصلاح الحيطان ومرمتها، وقوامها. كي لا تقضى فتنها، أو تصيبها آفة من أيقب^(١) أو ثلثة^(٢) أو نفق^(٣) فثمانية أشياء وهى: التهليل، والتحميد، والتكبير، والاستسلام، والتمجيد، والتسبيح، والاستغفار. والصلاة على النبي ﷺ.

باب صفة النفس وما فيها:

أعلم إن النفس نفسان: نفس ظاهرة، ونفس باطنة. فأما الباطنة فهي المذمومة، وأما الظاهرة فهي متابعة لمن قادها، وغلب عليها، واستولى. من ذلك قول الله عز وجل فيما يحكى عن شهادة يوسف بالسوء فقال: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾^(٤). وقوله ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾^(٥) فإنما تجادل النفس

(١) لعل الأيقب من وقب - الثلاثي - والذي يراد به الغروب. كما فى قوله تعالى: ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ سورة الفلق: آية ٣. ويكون الأيقب هنا هو الإظلام أى إقبال الليل بظلامه كما قال ذلك المفسرون رحمهم الله تعالى.

(٢) (كَلِمَ) الجدار وغيره ثَلَمًا: أحدث فيه شقًا وثَلِمَ الإناء: كسر حَرَفَه.

وثَلِمَ الشئ ثَلَمًا: صارت فيه ثَلَمَةٌ. فهو ثَلِمٌ.

(٣) (نَفَقَ) الشئ نَفَقًا: نَفَذَ. ونَفَقَت الدابة نفوقًا: ماتت.

(٤) سورة يوسف: آية ٥٣.

(٥) سورة النحل: آية ١١١.

الظاهرة النفس الباطنة.

وقوله: ﴿فَقَبْضُ قَبْضَتِهِ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾^(١).
وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾^(٢).

فهذه صفة النفس الباطنة، وأما صفة النفس الظاهرة. فإنها تابعة لمن غلب عليها، فإن غلب عليها الملك، وهو النور، والعقل كانت تابعة لهما. وإن غلب عليها النفس الباطنة وانقادت لها فمن قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾^(٣) لغلبة الملك عليها.

﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تُدْرِكُ أَنْ يَبَيِّنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْرًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٤).

الصواب^(٥) نفسه أى ذاته، أى نفس الشيطان. وذلك أن هذه الباطنة هى نفس الشيطان، ولها شأن نصفه فى موضعه إن شاء الله.

وقوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٦) أى أصلح النفس الباطنة لتصلح النفس الظاهرة بصلاحها، ومنه قوله عز وجل:

(١) سورة طه: آية ٩٦.

(٢) سورة المائدة: آية ١١٦.

(٣) سورة آل عمران: آية ٣٠.

(٤) سورة آل عمران: آية ٣٠.

(٥) كلمة (الصواب) أراد بها الشيخ رحمه الله تفسير الآية، ويراد بها كلمة (المراد) أو هكذا أراد والله أعلم. وما ذهب إليه رحمه الله من تفسير النفس هنا بنفس الشيطان هو من قبيل التأويل. فقولته تعالى ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ على نحو ما ذكر المفسرون أى يخوفكم عقابه، والله تعالى أعلى وأعلم.

(٦) سورة الشمس: الآيتان ٧-٩.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^(١).

إنما قال المطمئنة لأن النفس الباطنة إذا قُمعت، وسُجنت، ووقى شحها؛ ضعفت، وخذت نيرانها، وسكنت الظاهرة، واطمأنت من اقتارها، ووقعت في راحة.

ألا ترى إلى قول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) فهاتان النفسان ظاهرة، وباطنة كما وصفناه من شأنهما وهما مرتبتان عظيمتان، وبينهما تفاوت وتفاضل.

وهما خارجتان من تلك الحيطان كلها، والحنادق التي وصفنا وفيه أشياء ما لا يقدر وصفه مخافة طول الكتاب.

باب صفة النفس الباطنة:

فأما النفس الباطنة فإن جوهرها من أخس التراب، وأدناها وأخسناها، وذلك أنها من موضع موطن إبليس ومركضه^(٣) ومتخطاه وممشاه؛ إذ كان فيها ملكاً ورئيساً بقى الأرض^(٤) في

(١) سورة الفجر الآيتان ٢٧ - ٢٩.

والنفس المطمئنة هي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق؛ فيقال لها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أى إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿راضية﴾ أى في نفسها ﴿مرضية﴾ أى قد رضيت عن الله، ورضى عنها، وأرضاها (فادخل في عبادي) أى في جملتهم ﴿وادخلي جنتي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يشيرون المؤمن عند احتضاره، وعند قيامه من قبره.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) الركض: من ركض ركضاً، وركضة: ضرب برجله، وفي التنزيل الحكيم ﴿ارْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْفِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ سورة ص آية ٤٢.

(٤) بقى الأرض لعل المراد به البقاء والثبوت، وهذا ما ينسجم مع السياق، ومع المعنى اللغوي للكلمة.

زى الملائكة مع ذلك الملائ. فأصابها شؤم كفره لتوطئه عليها أيامه فى دهره، مع شركه الذى كان فيه، والكفر والتكبر، إذ وصفه الله بالكفر، وهو لباس التوحيد فشهد عليه بالكفر، وأبطل ما أظهر من دينه بما كان فى باطنه وضميره من الحيلة عليه يوم خلقه فقال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

فلما جبل آدم من تراب وجه جميع الأرض أسودها وأحمرها، خبيثها وطيبها، سهلها وجبلها؛ امتزج التراب والموطى والخطى بالأخرى، فلما جبلها صارت خلقة. آدم على موطأه وخطاه، وصار الموطى أخبث وأردى، وأظهر شؤماً من الخطوره، وسنصفه فى موضعه - إن شاء الله - فصارت تلك التربة جوهر خلقة النفس نفس آدم؛ إذ جبله عليها ومنها، وصارت أس النفس وقاعدتها. فلما فرع منه وضعه تحت العرش فمر عليه إبليس، وهو فى زى الملائكة. فقال لهم: أرأيتم إن أمركم الله له بأمرأ فتطيعونه. فقالوا: نعم؛ قال: فأما أنا فلا أطيعه.

وذلك أنه نظر فى أصل خلقتة؛ فعرف أنه خلق من التراب فتهاون به. وقال: إن أمرنى أن أطيعه فلا أطيعه، وإن هو لم يطعننى استفرغت الجهود فى استطاعته، ونصبته الحرب بينى وبينه. فقالت له الملائكة: ولم تفعل ذلك؟

قال: لأنه خلق من تراب موضع قدمى، وموطى، وخطوى وممشى، فى فيه وجهان: أما أحدهما: فهل يسجد الأب لابنه، والسيد لعبده، فإنه منى بمنزلة الإبن

(١) سورة البقرة: آية ٣٤.

ونص الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

أو العبد إذ خلق من مرتكض رجلى، وممشاى وما مسحت به قدمى منذ ألفى سنة.
وأما الوجه الآخر فإن موطئ الواطئ وخطوته كبعض جسده، فلا بعد
لبعض الجسد من الطاعة لبعضه، ولا بد لبعض الجسد الأدنى والأقل من الطاعة
لبعض الجسد الأعلى والأكبر. فقاس بهذه الأشياء أمر الله وخلقها، فأول من قاس
إبليس أبعد الله^(١).

[احتجاج إبليس]

احتجاج إبليس فيما احتج به:

قيل له ما الدليل على ما احتج إبليس، وما بيانه، وبيان حججه ما هو
موجود فيمن بعده؟

قال: أرى احتجابه في ذلك من قول الله تعالى ﴿فقبضت قبضة من أثر

(١) قول إبليس لعنه الله (أنا خير منه) من العذر الذى هو أكبر من الذنب؛ كأنه امتنع من الطاعة؛
لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول.

يعنى لعنه الله يقول وأنا خير منه؛ فكيف تأمرنى بالسجود له؟
ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقت منه، وهو الطين. فنظر اللعين إلى
أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من
روحه، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى ﴿فقعوا له ساجدين﴾ فشذ من بين الملائكة
لترك السجود. فلهذا أبلس من رحمة الله، أى أوس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله فى قياسه
ودعواه: أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثيت،
والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة،
ولهذا كان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام
لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

الرسول ﴿١﴾ كان تلك القبضة من موطن فرس جبرائيل، وكان على فرس الحياة، وإنما أخذ من موضع حافره. لما كان فيه من الحياة. فأثر ما طرح من تلك القبضة فأحيا كل شئ، وهو في قصة السامري يقول: فلو لم يكن ذلك التراب من الغرس لما كان يحيا منه كل ميت.

ومن قوله ﴿إنا نحن نحى ونميت ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ ﴿٢﴾ يقول ﴿وإن الله يكتب المؤمن وعلى الكافر ما قدم خيراً وشرّاً، والآثار ما تحت القدم فتلحق الآثار من الأفعال بالآثار من الأجسام، كما أن الأفعال من الأجسام. ومن قوله: ﴿ولا يطينون موطناً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ ﴿٣﴾.

يقول الله تلحق أى تجعل الموطن من العمل كموضع الوطن من الموطن، الموطن من الجسد كبعضه. وكأنه يقول لو لم يمكن الموطن من الوطن كبعض الجسد لما جعل النيل والموطن فى الأجر سواء.

فكما أن الوطن من الوطن. كذلك موضع الوطن من الموطن، فهذه صفة النفس الباطنة والظاهرة.

رجعنا إلى ما كنا فيه من شأن النفس. فالموطن إنما هو موضع القدم وخطوته.

(١) سورة طه: آية ٩٦.

(٢) سورة يس: آية ١٢.

(٣) سورة التوبة: آية ١٢٠.

ونص الآية الكريمة ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبون بأنفسهم عن نفسه. ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يظنون موطناً لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

وكان إبليس يوم وطئ تلك التربة كافراً في علم الله مطيعاً في الظاهر كما قال تعالى: ﴿وكان من الكافرين﴾^(١).

ومن قوله: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾^(٢).

وكما وجدنا لمقام إبراهيم من الكرامة والمنزلة ما جعل الله قبلة لمن آمن، وأمرهم بأن يتخذوه مصلى، وليس هو إلا أثر قدم في حجر؛ فوقع لقدمه من الحرمة ما إن اتخذ موضعه وأثره قبلة الخلق (لا تقبل التوبة في الأفاق) الآية^(٣).

ولم تقع هذه الحرمة إلا أنه عده من القدم، وألحقه به كأنه هو القدم نفسه، والقدم قد زال عنه، وأبليت أيدي اللامسين، واختلاف الزائرين فليس إلا رسم قدم قد ذهب عنه آثار الأصابع^(٤).

فكذلك لمقامي وقدمي وموطئ وأثرى وخطوى من المنزلة أن أعده من نفسي وبعضى وعضوى.

ومنه في حديث آدم حين أهبط إلى الأرض في أرض الهند^(٥) فما يلي مطلع

^(١) سورة البقرة: آية ٣٤.

^(٢) سورة البقرة: آية ١٢٥.

^(٣) لا توجد آية كريمة بهذا المعنى، ولا يبدو واضحاً ما يريد به الشيخ رحمه الله من هذا الشاهد. فكلية الأفاق لغة يراد بها، الضارب في أفاق الأرض. ويقصد بها كذلك: من لا ينتسب إلى وطن.

^(٤) هذا الكلام وجدنا له أصلاً صحيحاً في التفاسير، فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخص قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم.

^(٥) لا يوجد نص صريح من الكتاب أو السنة يستدل منه على الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه السلام، وقد اختلفت الروايات في ذلك. ولعل مما يدعم رأى الشيخ رحمه الله ما ذكره ابن عباس ؓ: أهبط الله آدم بالهند، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة. وعنه أيضاً: أنه أهبط برهما - أرض بالهند -.

الشمس فجبال جميع الدنيا، فما كان تحت قدمه نالته رحمته وبركته، فصار مدينة، وما كان بين قدميه صارت قرى، وما لم تصبه قدمه صارت مفاوز.

ومن ذلك أهل المدن على أهل القرى، فكما نالت تلك التوبة بركة قدم. كذلك نالها شؤمه وكفره وكبره، وكما أضيف ذلك إلى آدم كذلك أضاف عدو الله ذلك الشر إلى نفسه.

وذلك أنه أدعى أن الشؤم والكفر والعتق كانت فيه. فلما نالت التوبة امتزجت بها فصارت كالشي الواحد، ومنه سمى الخضر خضراً إلا أنه أين ما مشى من الأرض نالته بركته ولطفه وطيبه فاخضر ما حول قدميه.

وأصل الخضرة من نور الجلالة. وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾^(١) أى كونوا على الصلح الذى صولحتم عليه. وهو الحلال والحرام خير أبوكم بين الحلال والحرام، وخير العدو بين الحلال والحرام؛ فاختار الحلال آدم، واختار العدو الحرام والفحش؛ فاصطلحنا على ذلك، واصلطحت ورثة ابليس على ذلك.

فاصلحوا أنتم يا بنى آدم على صلح أبيكم، وما قد اختار لنفسه، ولكم من الطيبات، وما قد أباح لكم من الحلال، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، أى لا تتبعوا نفوسكم الباطنة؛ فإنها خلقت من خطوات الشيطان، وإن تهمتها تهمة الشيطان، وما اختاره من الحرام.

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٨.

فهذا السلم حصن لكم وكهف، فادخلوا في حصنكم وكهفكم
إذا حزبكم أمر من العدو: ﴿فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى
ربهم يتوكلون﴾^(١) فالسلم حصن، والتوكل حرز وثيق، وخندق قعر،
وبحر عميق.

وأما وصف من شأنه:

وكان من الكافرين فلما وطنها نالها من شؤمه، وشؤم كفره^(٢)
وظلمه، وقرده، واستكباره الذى ظهر منه يوم السجود؛ فصارت بهذا
المعنى كعضو منه، فلما لعن صارت تلك التربة ملعونة؛ حيث نالتها تلك
السخطة. فلما رمى إليه بالأباطيل صارت تهمة إبليس فيها ومراده من
الدنيا، ومطلبه، ومحجبه، ومسروره ومفروحة، ونالت تلك التوبة من آدم ما
نال صاحبها. إذ كانت قد صارت العضو منه؛ فبدر إبليس عدو الله، وقامر؛
فوجدها في آدم قائمة بعينه. فاستغنم منه بها؛ إذ وجد آدم مجبولا على
عضو من أعضاء إبليس.

فقال: جسدى لا يعصينى. كيف ما كان؛ فتقوى بها عدو الله، وفرح بما
نال من الفرصة.

(١) نص الآية الكريمة في سورة النحل ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾. إنه
ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم
به مشركون ﴿٩٨-١٠٠﴾.

(٢) شأهم شأماً: جر عليهم الشؤم. الشؤم: الشر.

[بين آدم وإبليس]

رجعنا إلى ما كنا فيه:

فلما أكرم الله تعالى آدم - عليه السلام - وأبرز فضله على جميع الخلق، وأمره بالسجود له. تكبر، وأنف أن يسجد لشيء دُفِعَ من تحت قدميه أدنى شيء وأخسه، وقال: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"^(١).

ذكر جوهرة، والنار من النور، والنور من العزة. فأنا أحق أن يسجد لي، ثم ذكر جواهر آدم وخلقته من طين والطين من التراب، والتراب من الأرض. والأرض ممشأ وموطئ فأسجد لنفسى، ولتحت قدمى، وأسجد لهوئى. فوصفه الله ذلك فى التنزيل، وحذر خلقه فقال: ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾^(٢).

أى لا تتبعوا الخطوة التى هى خلقتكم. فإنها دعوة إبليس وهى تابعة صاحبها، وقال: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، أى نهى النفس الظاهرة عن الهوى﴾. والهوى الخلقة التى خلقت عليها وهى النفس الباطنة وإنما سمى تلك التربة نفساً. لأن عدو الله ادعاها، وإنما سماها هوى؛ لأنها مهما غلبت على النفس الظاهرة هويت بها إلى أمها، وأمها الهاوية.

(١) وردت الآية الكريمة فى موضعين؛ هما: الأعراف ١٢، ص ٧٦، وهى قوله تعالى ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٨.

ونص الآية الكريمة ﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

وذلك أن إبليس خلق من النار، وذلك قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَٰوِيَةٌ﴾^(١). وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاةً﴾^(٢) يقول اتخذ الهوى أى نفسه الباطنة إلهه؛ فجعل بطبعها ما تأمر أو تنهى قد نصبها ربها بين عينيه؛ ثم شهد عليهم. أنهم كالأنعام ذكر أنهم أضل من الأنعام.

رجعنا إلى ما كنا فيه، فلما صارت النفس الباطنة. هوى إبليس عضو منه. كما ذكرنا أطاعت إبليس فيما كان يأمرها من الفحش والباطيل والمعاصي. لم يكن للنفس الظاهرة بد من الإنقياد لها، والطواعية فيما تبر فكانت تواتيها^(٣) فيما يكره الله، وتنخضع لها؛ إذ كان فيها من الحبث مثل ما فيها.

وذلك أنها من تحت القدم، وهذه فيما بين القدمين التى لم يطأها؛ فايد الله عبده بما وسع عليه من الحلال، وأباح لها فأحل وحرّم.

فنبذ الحرام، والفحش، إلى إبليس فرفعه، ورمى الحلال الحسن إلى العقل فرفعه، فأمر بالحرام إبليس فأطاعته النفس الباطنة، فأشبعت الظاهرة فأرادت أن تطيعها وتتقاد لها، إذ كانت من جوهرها. وإن كانت الشهوة فيها متحركة. فنبذ الله إليها بالحلال فتعلقت الظاهرة. إذ كان الغالب عليها ملكها فلم تنقد للباطنة. فعسكرت عليها الباطنة بجنود إبليس، وعسكر عليها الملك، وهاجت الحرب فيما بينها وهى مدبذبة بين ذلك وتلك دار حرب لا سلم أبداً، والجوارح فيما حولها قراها. فمتى كانت الغلبة للملك اطمأنت النفس الظاهرة،

(١) سورة القارعة الآيتان: ٨ - ٩.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٣.

ونص الآية الكريمة ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاةً فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

(٣) (واتها) على الأمر مؤاتاةً، ووتاء: طاعه.

ورضيت بما أحل الله لها، ومتى كانت الغلبة لها كانت منقادة منهوكة في الحرام. رجعنا إلى ما كنا فيه من التحليل. فأيد الله النفس الظاهرة بما أحل حتى حلها من وثاق الهوى وخلصها، وسجنها، وأخرجها من رقها. فقال: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾^(١)، وقال: ﴿ركلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً﴾^(٢)، ثم قال على فوره ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾^(٣) ثم بين سبب النهى فقال ﴿إنه لكم عدو مبين﴾^(٤).

فأعلم أن خطوات الشيطان هي التي تأمر بالسوء والفحشاء، وهي نفسك الباطنة. حتى تشتت فاطعمها الحلال. فإن الله أحل وحرم فمتى انتهى عن الحرام أبدل مكانه الحلال. وقال ﴿خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾^(٥)، أى لم يكن لى فيما خلقت حاجة إنما خلقتها من أجلكم، فخلوها من وجهة ما أحللت. فقد جعلت الحلال بيناً والحرام بيناً وما حرمت إلا الخبائث، والفواحش، وما لا لذة فيه، وما أحللت إلا الطيب واللذيذ، ثم قال: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾^(٦).

(١) سورة الأعراف: آية

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٨.

(٣) سورة البقرة: آية ١٦٨.

(٤) سورة البقرة: آية ١٦٨.

والمقصود بخطوات الشيطان فى الآية الكريمة هى كل معصية لله تعالى، وقال عكرمة، هى نزعات الشيطان، وقال أبو مجاز هى الدور فى المعاصى.

(٥) سورة البقرة: آية ٢٩.

فنص الآية الكريمة ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾.

(٦) سورة المؤمنون: آية ٥١.

ونص الآية الكريمة ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾.

أى لا تطيعوا النفس الباطنة. فإنها تأمركم بالفحشاء والمنكر، وقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾^(١). أى من أطاعنى فى الحلال. فإن فى الحلال غنية عن الحرام. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾^(٢) وقال ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾^(٣).

فأباح أكل الحلال من الطيبات، واقتضى الشكر على ما أحل وأباح لا على النعمة، ثم قال ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾؛ فجعل شكر على إباحته لك الحلال عبودة وتوحيداً، ثم اعتذر^(٤) فيما حرم ووصف الحرام فقال: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾^(٥).

أى أنى لم أحرم عليكم إلا مثل هذه، فلو كنت أحللت لكم مكان هذه الطيبات تلك الفواحش والحرام ما كنتم تصنعون، وكيف كنتم تتناولون ذلك فاشكرون على أنى أحللت لكم شهواتكم التى تشتهون، وحرمت عليكم ما تستقلدون ونجس نفوسكم إذا ذكرتموها.

وقوله ﴿وما أهل به لغير الله﴾^(٦) الذى إذا ذبح لم يذكر عليه اسمى، ما تصنع به

(١) سورة الكهف: آية ٧.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٥١.

(٣) سورة البقرة: آية: ١٧٢.

(٤) الاعتذار من الله تعالى لا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى، وربما خان التعبير الشيخ رحمه الله فليس بالآية الكريمة اعتذار، وإنما هو تفصيل للمحرمات، وعلاقتها توضيحية وتفصيلية بالآية السابقة، فبعد أن أباح تعالى أكل جميع الطيبات، حدد المحرمات فيما ليس بطيب، ولا تنسحب عليه تلك السمة. وهذا يتضح من قوله إنما أفادت القصر تخصيصاً.

(٥) سورة البقرة: آية ١٧٣.

(٦) سورة البقرة: آية ١٧٣.

إذا ذاك قد اجتمع فيه سم الدنيا، وذلك أن اسمى مبارك، واسم الطاغوت والشيطان شؤم وسم، فإذا لم يذكر اسمى، وذكر اسم الطاغوت. كيف يهنا ذاك في البطون، فإني إنما حرمت مثل هذه الأشياء؟، ثم قال ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾^(١). فافتضى الشكر أيضاً على أنه أحل لكم الحرام في أوقات الضرورة، وأباح لك تناول؛ ثم قال ﴿إن الله غفور رحيم﴾^(٢)، أى لا يأخذك على التناول من الحرام رحيم. من رحمته أباح لك الحرام عند الضرورة فهذا في الدنيا. وأما في الآخرة: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾^(٣)، أى نهى نفسه الباطنة عن الحرام، وأعطاه من الحلال. وقال: ﴿لكم فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين﴾^(٤)، لم أنتهى عن اتباع النفس الباطنة إلى الحرام، فهذه صفة النفس الظاهرة والباطنة، ولها سبعة أبواب شارعة إلى الجوارح والجوارح سبع قرى حولها. فإذا كان الملك لها أميراً عليها جارياً سلطاناً كان كلها ساكنة والقرى مطمئنة ﴿يأتيها رزقاً رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله﴾^(٥) فاطاعت الباطنة

(١) الآية السابقة.

(٢) الآية السابقة.

(٣) سورة النازعات: آية ٤٠.

(٤) سورة الزخرف: آية ٧١.

وتصويب الآية الكريمة هو ﴿وفيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين وأنتم فيها خالدون﴾.

(٥) هذا دأب الشيخ رحمه الله في الاقتباس من آيات الذكر الحكيم، وهذا أمر يشير إلى تأثره الواضح رحمه الله بمعاني القرآن العظيم، وتراكم آياته، وقارته على استحضر الآيات في موضعها المناسب. والآية الكريمة التي اقتبس منها الشيخ رحمه الله هي قوله تعالى ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ سورة النحل ١١٢.

بالحرام، وتركت الحلال؛ ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾^(١)
من موافقتها بما كرهه الله لها.

[امتناع إبليس عن السجود]

رجعنا إلى ما كان من شأن إبليس:

فلما أمر بالسجود تكبر وأبى وقال له: ﴿فأخرج منها فيأبى﴾ رجيم وإن
عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴿٢﴾ فأبلس^(٣) وصار شيطاناً رجيماً؛ أبلس من كل خير
وسلب لباس الرحمة، وصار عرباناً آيساً من رحمة الله، وفاسقاً اجترأ على الله أن
قال له خلقت خلقاً أدنى منى وفضلته، وهو يعصيك ويفسد فى الأرض ويسفك
الدماء وأشقيتنى فى جنبه، وهو لم يعبدك طرفة عين، وأنا قد عبدتك عبادة لا يصف
الواصفون صفتها، فما كان سبب ذلك قال الله: ﴿إنى أعلم ما لاتعلمون﴾^(٤). قال
إذاً سلطنى عليه، وما تصنع؟ قال أجعله عابداً لى. قال: هو إن يعطيك فى ذلك
قال: إذاً سلطنى عليه. قال: لك ذلك.

قال: وهل يمكن ذلك إلا بالأجل والعمر الطويل؟ قال مما تشاء. قال: ﴿أنظرنى إلى يوم
تبعثون قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم وولده أجمعين﴾^(٥).

(١) من الآية الكريمة ذاتها.

(٢) سورة ص الآيتان : ٧٧ - ٧٨.

(٣) أبلس أى تمرد وعصى. وإبليس : رأس الشياطين، ÷ والجدمع : أباليس وأبالسة.

(٤) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٥) سورة ص الآيات ٧٩ - ٨١. ونص الآيات الكريمة هو ﴿قال رب فأنظرنى إلى يوم تبعثون ٠ قال فيأبى﴾
المنظرين ٠ إلى يوم الوقت المعلوم ٠ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ ولعلنا نلمح وجود خطأين فى المخطوطة فى
الآيات الكريمة، الأول فى إغفال كلمة رب فى الآية رقم ٧٩، وزيادة كلمة ولده فى الآية رقم ٨١.

[صفة آدم عليه السلام]

صفة أخرى:

وكان آدم رجلاً حياً، كريماً، لا يعرف الشر في الجنة مع زوجته، يأكل منها رغداً حيث شاء. فاحتال عدو الله بكل حيلة العدو التي كانت فيه، والحقد على ما شقى في جنبه، وطرد من الملوكوت، وغره بكل غرور. حتى دخل الجنة كما هو والقصة الطويلة. ثم التفت إلى ما تقدم إليه على سبيل النصيح، والعطف فقال: نعم داركما هذه إن لم يكن لها خوف.

قالا: ما هو؟

قال: هل نهاكما عن شيء؟

قالا: نعم. عن هذه الشجرة.

قال: وأخذ يحبيه متحازناً^(١) مودياً لها أنه يحزن لهما.

قالا مالك؟

قال: أنا من الملائكة الذين يعلمون الغيب.

قالا: وما تعلم من شأننا؟

قال: "مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا

من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين"^(٢) فيما أعلمتكما من أخذ شأنكما.

(١) من الحزن، حَزَنَ الرجل حَزْناً وحَزْناً: اغتم. وحَزُنَ الأمر فلاناً: أحزنه، وتَحَزَّنَ عليه.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٠.

ونص الآية الكريمة ﴿فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لَيْبِى لَهَا مَا رَوَى عَنْهُمَا مِنْ سُوءِ اتِّهَامٍ وَقَالَ مَا نَهَاكَمَا رَبُّكَ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

قال: وما الحيلة؟

قال: "هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى" ^(١)، فكيلا من هذه، ففرهما باسم ربهما. قال الله تعالى: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ ^(٢)، فأخرجنا من الجنة؛ فلما هبطا إلى الأرض، وهبط اللعين قال مغترّاً بجرأة الكفر، وحرقة الحقد: "ألم أقل لك أنه يعصيك ويطيعني ويعبدني فمن أطاع شيئاً عبده، ومن عبده صار عبده، فهو عبدي، وفيه لي أصل الخلقة دعوى إذ خلقتني من التراب، والتراب من الأرض، والأرض أثر قدمي وموطئي وممشاي، وكان بها مسكني. فخلقتني من ملكي وملكى، وموضع قدمي، وقدم الواطئ حقه في الحكم، وبه عصاك، إذ كان أصابه شؤمي وجرأتي، وبه ظفرت عليه.

قال: فما تشاء. قال: سلطني عليه، قال: اذهب فقط سلطتك عليه، فاطلب منه دعواك.

قال إذ سلطنتي عليه فبعزت لك لأغوينه وولده أجمعين قال الله: ﴿إن لي منه عباداً مخلصين ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ ^(٣) فقال إبليس اللعين: إلا عبادك منهم المخلصين فاستثنى اللعين على استثناء الرب عز وجل.

(١) سورة طه: آية ١٢٠.

والخطاب في الآية الكريمة موجه إلى آدم عليه السلام فقط، وليس لآدم وحواء كما يقول الشيخ (هل أدلكما). وهذا ما يتضح من النص الكريم ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢١.

(٣) هذا المعنى ليس نصاً قرآنياً صريحاً، ولكنه ورد ضمناً في آيات قرآنية ثلاث، في سورة الحجر: آية ٤٠ وفي سورة الصافات: آية ٤٠، وفي سورة ص آية ٨٣، ونقرأ من هذا قوله ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين، سورة الحجر ٣٩-٤٠.

[معاينة إبليس]

باب معاينة إبليس وسؤاله الآلة للحرب على آدم وولده والعون والظفر:

فقال يارب إذ سلطتني عليه،^(١) وشفيت صدري منه. بما نبذت إلى فما سألت فزدني قوة إلى قوتي.

قال: تجرى منه مجرى الدم قال: يهزمني بذكرك. قال: قد وضعت فيه النسيان، والخطأ، والغفلة.

قال: يغلبني بكثرة الولد، قال لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله.

قال: يغلبني بالقوة التي فيه قال: ﴿اجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم﴾^(٢) أن لا جنة ولا نار فقال، شفيت صدري منه لأتيتهم من بين أيديهم، الدنيا أزينها في أعينهم ومن خلفهم، الذنوب فازينها وآمرهم بها وعن أيمانهم فانسها لهم، وعن شمائلهم التوبة فاؤخرها^(٣).

(١) قضية التسليط لها خلفية تاريخية، ينبغي إبرازها، فعندما خلق الله آدم عليه السلام كان جسداً من طين أربعين سنة، فمرت به الملائكة. ففزعوا منه لما رأوه؛ فكان أشدهم فزعاً منه إبليس؛ فكان يمر به فيضربه، فيصوت الجسد. كما يصوت الفخار يكون له صلصلة. يقول تعالى ﴿من صلصال كالفخار﴾ ويقول: لأمر ما خلقت. ودخل من فيه فخر ج من دبره. وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكه (ابن كثير ٧٦/١).

(٢) سورة الإسراء: آية ٦٤.

والنص الكريم هو قوله تعالى ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾.

(٣) يلح الشيخ رحمه الله إلى بعض ما يفهم من قوله تعالى عن تربص الشيطان بالإنسان ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لأتيتهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾. سورة الأعراف: الآيات ١٦، ١٧.

[سؤال آدم]

باب سؤال آدم صلى الله عليه النصره والظفر على عدوه وآلة الحرب وما
يمنع العدو بنفسه:

فقال آدم سلطت على عدوك، وأيدته بقوتك. فكيف أقوى به.

قال: أحفك بملانكتي.

قال: زدني.

قال: لا أخذك بالخطأ والنسيان.

قال: زدني.

قال لا أكتب عليك نية السيئة.

قال: زدني. قال: فإن لم تعملها جعلتها حسنة.

قال: زدني. قال: أكتب لك ما نويت.

قال: زدني. قال: عملتها كتبت بعشر أمثالها.

قال: زدني. قال: أزيدها إلى سبعمائة.

قال زدني. قال إلى أضعاف^(١).

(١) لعل هذا ما نجده في قوله صلى الله عليه وسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة).

قال: زدنى.

قال: إذا عملت سيئة لم تكتب عليك إلى سبع ساعات^(١).

قال: زدنى. قال: رحمتى سبقت غضبى^(٢). قال: يارب يغلبنى بجنده وخيله.

قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه. وذلك قوله ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾^(٣).

قال: زدنى قال: التوبة مبسوطة إن تبت، أو تاب أحد من ولدك إلى سنة قبلت منه.

قال: زدنى قال إلى شهر.

قال: زدنى. قال: إلى ساعة.

قال زدنى قال: ما لم يفرغر^(٤).

(١) نقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾. سورة ق الآية ١٧، حديثاً عن أبى أمامه قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: (كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرأ وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر).

(٢) هذا جزء من حديث صحيح، رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه "لما خلق الله الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتى سبقت غضبى".

(٣) سورة الرعد/ الآية ١١.

(٤) هذا المعنى نجده فى قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما (إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يفرغر) رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

قال فما آلتى. قال: أنزل عليك كتبي.

قال: زدنى. قال أرسل إليك رسلى.

قال: زدنى.

قال: أؤيدك بالصدق ما لم تفارقه لن يغلبك.

قال: زدنى قال: أعلمك كلامى.

قال: زدنى.

قال: جعلت الأذان وراثه فى ولدك.

قال: زدنى. قال اتخذ لك مسجداً ترورنى فيه.

قال: زدنى. قال: جعلت ذكرى شرباً لك.

قال: فما جندى؟

قال: ما يتخلق رئيسهم وقائدهم العقل.

قال وما العقل؟ وما الجنود؟

قال العقل ملك وله سلطان وهو المعرفة، وقائده العقل ومعدنه الدماغ
ومسكنه فى الصدر، وسلطانه فى جميع الجسد، وله مائة عون كل عون فى
أمر.

[سؤال إبليس]

باب سؤال إبليس المدد وآلة الحرب والجنود والأعوان على آدم :

ثم تقدم عدو الله إبليس. فقال سلطت على آدم، بعدما جعلتني مدموراً مدحوراً، وأشقيتني في جنبه، و سلبتني خلعة الكرامة، ولباس الملائكة من أجله، وأعطيتة آلة الحرب والجنود ونصرته وقويته، ونصبت الحرب بيني وبينه. فما آلتى وما جنودى؟

قال ما تشاء.

قال أعطيتة الكتب فما كتابى؟

قال كتابك الرشم^(١). قال فما رسلى؟

قال: الكهنة^(٢).

(١) الرشم، وهو أن يُغرّز عضو من الانسان بنحو الإبرة، حتى يسيل الدم، ثم يُحشى بنحو كحل، فيصير أخضر، وهذا تغير لخلق الله.

ولذا جاء في الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله".

(٢) العلاقة بين الكهان والشيطان أمر أخبر عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى أكثر من حديث صحيح، ومن ذلك ما ورد فى صحيح الإمام البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الملائكة تنزل فى العنان (السماء) فتذكر الأمر قضى فى السماء فيسرق الشيطان السمع، فيسمعه، فيوحى إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم". وقد وردت أحاديث كثيرة تعضد ذلك فى تفسير قوله تعالى فى سورة سبأ: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. الآية ٢٣.

قال فما حديثي؟

قال الكذب.

قال فما قرآني؟

قال: الشعر.

قال: فما مؤذني؟ قال العطان والمزمار.

قال: فما مسجدي؟ قال السوق.

قال: فما بيتي؟

قال: الحمام والكنائس.

قال فما طعامي؟

قال ما لم يذكر اسمي عليه.

قال فما شرابي؟

قال: كل مسكر.

قال: فما مصائدی؟

قال: النساء.

قال: فما سلامي؟

قال: النساء.

قال أعطيته جنوداً فما جنودي؟

قال ما به خلق من أخلاق السوء والهوى عليك في ضدي كل خلق من

أخلاق آدم. قال: فرضي اللعين.

[صفة المعرفة]

باب صفة المعرفة وصفة لباسها :

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(١) فالقلب مضغة خلقها الله من بطانة الأرض مما لم يمسه وطئ إبليس، ولا خطوته. لأنه كان في سابق علمه أنه معدن معرفته. ومن ذلك لا يجد الشيطان عليه سبيلاً حيث قال: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٢).

أى على قلوبهم، ومنه قيل "القلب بيد الرحمن"^(٣) ومنه في الحديث أنه سأل ربه خصلة فقال ما هي يا إبليس؟ قال: السبيل على قلبه.

قال: ذاك محرم عليك أن تدخله أو تسلط عليه ولكن لك سبيل، ومجرى من النفس وأصل في العروق إلى حد القلب.

وأصل العروق في النفس ورأسها في القلب. فإذا دخلت العروق وجرت فيها عرفت من ضيق المخرج. فامتزج بماء الرحمة في مجرى واحد.

وجرى إلى القلب مع شؤمك ونفختك وتنتك وظلمتك، ووصل إلى القلب سلطانك فغلبت صاحبه، ومن أردت به خيراً واخترت له جعلته ولياً، أو صديقاً، أو نبياً فلقت العروق من باطن القلب، ونزعتها منه فصار القلب سليماً. فإذا دخلت العروق وجرت فيها لم يناله شؤمك ولم يصل إليه سلطانك، ولا ظلمتك إذا كانت أصول

(١) سورة الزمر / الآية ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء / الآية ٦٥ .

(٣) ورد هذا المعنى الذى يشير إلى أن القلوب بيد الرحمن تبارك وتعالى فى أدعيته، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك) .

العروق منقطعة من باطن القلب، وصار ما بين القلب، وبين أصل العروق فرجة فرضى اللعين بذلك.

وقد ذكر الله ذلك في كتابه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١). فالقلب السليم الذى نزعته منه أصل العروق، ومنه أن محمداً صلى الله عليه وسلم شق عن قلبه وأخرج منه العلقه، ونزعته منه أصل العروق ثم يختم عليه^(٢). فالقلب وإن كان شريفاً فإنه قد خلق مما خلقت منه النفس، ولكن التفضيل ما بينهما.

إن النفس خلقت من أديم الأرض وظاهرها، والقلب من باطنة الأرض. والأرض خلقت من كدرة الماء وخبثه وزبدته وأصلها من الماء، فهي يابسة خشنة، والنور من اللطف، فإذا تخلى القلب من النور ومائه ورطوبته ونظافته رجعت إلى جوهرها من الأرض يابسة خشنة.

فإذا دام بها ذلك قسا القلب أى ييس، وصارت إلى حالتها وجوهرها. ولما اجترأ إبليس ما احتج على آدم وفضل نفسه عليه نظر فى نفسه، واعتبر جوهره

(١) سورة الشعراء / الآية ٨٩ .

(٢) يشير الشيخ رحمه الله إلى واقعة شق صدره - صلى الله عليه وسلم - فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾ سورة الإنشراح الآية ١ .

وفى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "فبينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول أحد الثلاثة، فأتيته بطست من ذهب فيها ماء زمزم، فشرح صدرى إلى كذا وكذا" قال قتادة قلت: ما يعنى؟ قال: إلى أسفل بطنى، قال "فاستخرج قلبى، فغسل قلبى بماء زمزم، ثم أعيد مكانه حتى حشى إيماناً وحكمة" وقد ورد الحديث بروايات عديدة، وجميعها صحيحة، والله تعالى أعلى وأعلم .

فقال ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾^(١) والنار من النور وخلقته من تراب والتراب من الظلمة، والنور أبداً غالب على الظلمة، ولم يلتفت اللعين إلى أن التراب من الطين، والطين من الماء والماء حياة كل شئ. والماء يطفى النار فلذلك احتج بما احتج .

خلق آدم عليه السلام:

وأما أصل معرفة المعرفة، ومعرفة جوهرها، فإن الله لما أراد أن يخلق آدم جميع وجه أديم الأرض في الموضع الذي أراد أن يتخذ منه البيت، وهو الكعبة، ثم رفع تربته منه وعجتها بماء الرحمة، ثم جعل فيه نور المعرفة كالخميرة، ثم حمّرها، ووضعها أربعين يوماً حتى نشف فيها نور المعرفة، وامتزج بها ماء الرحمة.

وخرج ما كان في باطنها إلى ظاهرها من النور والبهاء، ثم فتحت خزائن الصور، فاخترت أحسن الصور، فرفع مثاله وصورته منها، ثم رفعها فصور منها آدم على أحسن صورة^(٢)، ثم نفخ فيه من نور الحياة فأحياه بالنور، وحركه بالنفخ والنور والروح، وهو روح الحياة، فإن للروح حياة، فلم تدب الحياة في جسد آدم، ولم تكتمل عروقه حتى قذف الله فيه المعرفة وهو أصل النور، الذي كان وضع في آدم، حيث حمّرت طينته به فلما التقى نور المعرفة والمعرفة في القلب استبشرا، وابتهجيا، واقتربا حتى اتصلا، فلما اتصلا تعارفا، فلما تعارفا عرفا.

عرف النور المعرفة، والمعرفة النور، إذ كانا متصلين في البدء، وفي مكان

(١) سورة الأعراف / الآية ١٢ - سورة ص / الآية ٧٦.

(٢) نقرأ في هذا حديثاً أورده الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام وطوله ستون ذراعاً، ثم قال له اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك، فقال السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"

واحد عند الملك الأعلى، منتصباً بين يديه، فاجتمع نوراهما على القلب، وسطعا بنوريهما، فأثار القلب، وأضاء من سلطان النور، وسطع منهما شعاع إلى العرش فوقف بين يدي الجليل، فاتبع القلب بصريعته حتى انتهى منتهى الشعاع، فشاهد نور القربة، وأبصر الجلال، وحُجِبَ إليها.

فالتقى نور القربة ونور الشعاع، وهو نور المعرفة والمعرفة بنفسها، فعرف ربه فلما أذن له بالكلام أبرز ما كان عاين وشاهد وعرف.

فقال لا إله إلا الله. فلما التمس الروح المنفذ والمسلك للخروج، إذ ضاق به ذرعاً، والكون في موضع مضيق كربه هائل مظلم، وقد كان مُخلّلاً عنه في ساحات الملكوت^(١)، فلم يجد السبيل اضطرب، فنظر إليه الرب نظرة كى يقرب، فارتعد من هيبته سلطانه، فسكن فخرج النفس منه، ثم استقر، فقال الحمد لله.

فلما أخرج ذريته منه. نالهم ذلك النور من الموضع في الذي هم منه يوم التخمير بالخصص، فصار لكل منه حظاً على قدر ما كان في القضاء في سابق علمه.

فمن كان في سابق علمه أنه لا يؤمن، ولم يرد به بالمعرفة، ولم يمد به، وتركه على ذلك النور الذي جبل عليه أبوه آدم، ولم يعرف ربه. لأنه لم يقذف إليه المعرفة، ليعرف المعرفة، ليعرف النور المعرفة، والمعرفة النور، فيعرف صاحبها ربه وعلمه إن سألته عنه لم يعرفه، ومن ذلك قوله ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾^(٢)، وهو النور نور

(١) خلا المكان والإناء وغيرهما خلواً، وخلاء: فرغ مما به. وخلا الشيء: مضى وذهب. وخلي الأمر: تركه. ومعنى مُخلّلاً عنه أى مُفرغاً مزوكاً.

(٢) سورة الروم / الآية ٣٠.

ونص الآية الكريمة ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

المعرفة وقوله ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾^(١).

ومن كان في سابق علمه أن يؤمن أمدّه بالمعرفة، وقذفه إليه، فالتقيا وتعارفا وسطع نوراهما إلى الملك، فدلا صاحبهما على ربه، فاتبع القلب بصره إلى ما سطعا، فوجدهما بين يدي الجليل في نور القرية، فعرف العبد ربه، ومن ذلك قوله ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾^(٢).

وهو نور المعرفة ﴿ويتلوه شاهد منه﴾^(٣)، وهو المعرفة وإنما جمع تربته في موضع الكعبة، لأنه كان في سابق علمه أن يتخذ لهم قبلة.

وأما المعرفة فإنها إن سأل: أفعل الله هي، أم فعل العبد؟ فإن المعرفة هي من فعل العبد والمنسوبة إليه، وبها يصير محموداً عند ربه ويخلوه منها يصير مذموماً، ولكن النسب الذي به وصل العبد إليها خمسة أشياء، وهو ليس إليه، ولكنه محمود عند ربه باستعمالها، ومدرك بها معرفة ربه.

وهي: الفهم، والذهن، والذكي، والحفظ، والعلم.^(٤) وهو ذكر الفطرة، وهي من الله لعبده، وليس إلى عبد منهن شيء.

(١) سورة لقمان / الآية ٢٥ - سورة الزمر / الآية ٣٨ .

(٢) ، (٣) سورة هود / الآية ١٧ . ونص الآية الكريمة هو ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ .

(٤) الأشياء الخمسة التي عددها الشيخ رحمه الله والتي توصل العبد للمعرفة، وتؤهله لمعرفة ربه تعالى، وهي: الفهم، والذهن، والذكاء، والحفظ، والعلم . هذه الخمسة هي نواتج عمل العقل أو التعقل . على أن ثمة خلطاً بها، فكلمة الذهن من الكلمات التي تتسع دلالتها عند أهل اللغة فهي تشمل: الفهم والعقل . يُقال: ذهن ذهنًا: فطن . وفطن الشيء: فهمه وعقله فهو ذهن، وهي ذهنة . وربما أراد الشيخ رحمه الله بالذهن التفكير والتفكر وهذا صحيح أيضاً وفق التفسيرات المعاصرة للذهن بأنه يطلق على التفكير وقوانينه، أو مجرد الاستعداد للإدراك .

ولكنه محمود باستعمالها مدموم بترك استعمالهن وأما نور المعرفة فهو من الله وليس الى العبد منه شئ.

وذلك أن الله عز وجل لما أراد أن يخلق آدم حمر طينته بيده وولى تصوين بنفسه^(١)، وخلق من شيتين من أدنى شئ وأخسه، وهو التراب، وأعلا شئ وأشرفه والطفه وأطيبه وهو ماء الرحمة، ووضع فيها شيئاً هو أشرف الأشياء وأبهاها، وأنورها.

أخرجه من خزائن الربوبية، وقدره بعلم الوجدانية عليه لباس الألوهية، محشو بنور الجلال والفردانية يحكى عن رب قديم، وإله عظيم، وقادر لطيف ليس كمثله شئ، وهو الحكيم الخبير، وهو نور المعرفة.

ثم وضع فيه تلك الأشياء الخمسة التى ذكرناها، ثم وضع الطينة تحت عرشه أربعين خريفاً حتى شرب فيه كل ما وصفنا، وخلص إلى عضو وعرق ومفصل منه، من قرنه^(٢) إلى قدمه.

(١) قضية خلق آدم عليه السلام على نحو ما يذكر الشيخ رحمه الله من كونه تعالى خلقه من تراب وماء أى طين كما قال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ الحجر ٢٦، وقوله تعالى للملائكة ﴿إني خالق بشراً من طين﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴿ص ٧١-٧٢. هذا أمر لا خلاف عليه فى كون الطين مشتملاً على التراب والماء. وما ذكره الشيخ عما سماه ماء الرحمة لم نجد له تدعيماً من أراء المفسرين فى تنواعم للآيات الكريمة فى مثل قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾ الفرقان ٥٤. ﴿وإله خلق كل دابة من ماء﴾ النور ٤٥. حيث توقفوا رحمتهم الله عن نعت الماء بكونه ماء الرحمة أو ماء الحياة. وهذا من اجتهاد والشيخ رحمه الله والله تعالى أعلى واعلم.

(٢) يقصد بالقرن هنا أعلى آدم عليه السلام، أى رأسه والله أعلم.

ثم نفخ فيه الروح حتى إمتلأ منه، واستقر فأخذ كل شئ من آدم حظه من نفخ الروح، ومن النور الذى وصفته، ومن قرينة التصوير، وصنعة اليد، ومن تلك الأشياء الخمسة التى وصفنا، وأصاب جميع ذريته حظوظهم من ذلك كله، وهم فى صلبه كل على حياله وحصته، وصارت تلك الثلاثة عندهم آية لربهم ودليله عليه، واستدلوا بها على ربهم.

إذ نالوا من التصوير صنعة اليد والقربة، ونالوا من النفخ الحياة، إذ كانت الحياة من حيوية فحيوا بها، ومن النور الذى ذكرنا وهو نور المعرفة الروية^(١) بلا كيفية، ولا حد.

وإنما رأوا ذلك بتلك الخمسة التى ذكرنا. ولو لم تكن تلك لم يقيموا على ذلك كله، ولم يقدرُوا على معرفته.

أما الذهن فيه توصل إلى كل ما خفى عليه، وأما الفهم فيه مدرك المغيب، وأما الذكاء فيه يستخرج المكنون بالتحقيق، وأما الحفظ فيه يحاط، وأما العلم فيه يدبر ما غاب، فباستعمال هذه عرفوا ربهم، وبها فهموا عن ربهم، ووقفوا على صنائعهم، وحفظوا ربهم، وبها فهموا عن ربهم، ووقفوا على صنائعهم، وحفظوا ما نالوا منه، وأسماءهم فى المقادير، وهم فى صلب أبيهم آدم ذلك هدى العلى العليم، فلما أخرجهم من صلبه يوم

(١) الروية أى النظر، والتفكر فى الأمور . وأصلها تَرَوَى، ورَوَى فى الأمر: نظر فيه، وتفكر .

الميثاق^(١)، وضعهم على كفه فمآلهم قربته فاستعملوا الأشياء الخمسة، فدلتهم تلك القربة على هذه القربة.

إن كلاهما من الرب الرحيم فأيقنوا به فلما كلمهم دهم نفخ الروح على أن الكلام من الذى نفخ الروح يومئذ، إذ كان له عندهم بيعة عليه فيه، ثم لما تجلى لهم عن وجهه الجليل سطع منه نور على وجوههم، وغشيتهم به دهم ذلك النور الذى وضع فى أبيهم، وهو نور المعرفة على أن النور الذى غشيتهم اليوم من الجليل الجميل، فعرفوا رباً واحداً فرداً صمداً.

وذلك أنه لما اتفق النوران والتقيا سطع على أعين قلوبهم النوران الربانيان دلاهم على ربهم الفرد الواحد، فعرفوه وأيقنوا به.

ويرون ذلك كله باستعمال تلك الخمسة التى وصفنا. فالعبد فى استعمالهن محمود، وفى تركهن مذموم على كل حال، وفى كل وقت، وفى كل مكان.

(١) يوم الميثاق، وهو يوم الدر، حيث أخرج تعالى من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض، وجعل لهم عقولاً كاملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأنه لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم على بعض. وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها. وهذا ما تجده فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف آية: ١٧٢. والفاظ الآية تقتضى أن الأخذ إنما كان من بنى آدم وليس لآدم فى الآية. ووجه النظم على هذا: وإذا أخذ ربك من ظهور بنى آدم ذريتهم. وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهم كلهم بنوه، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره. فاستغنى عن ذكره لقوله (من بنى آدم).

وذلك أنه إذا لم يستعملهن في كل وقت، ونسى صنيع ربه به ، وما أكرم به من النفخ والنور والقربة يوم آدم، ولم يذكرها، ولم يحفظها بالفهم والذهن لم يعرف ربه يوم الميثاق، إذ لم يكن عنده ما يستدل به على كلامه وقربته ونوره الذي نالهم وهم في كفه^(١).

فالمعرفة واستعمال تلك الخمسة على العد مطالب بهن، ومحاسب عليهن، محمود على استعماهن، مذموم على تركهن.

ونور المعرفة من الرب ليس إلى العبد منه شيء، ولا له عليه ذم ولا مدح، إذ كان ذلك من فعل الله بعبدته وإكرام له به.

فإذا استعمل العبد تلك الخمسة. خرج النور من المعرفة، لأن النور يتمكن فيها، والمعرفة متمكنة في تلك الخمسة فإذا استعملهن خرجت المعرفة، فإذا استعمل

(١) هذه مسألة تحتاج إلى تحقيق، حيث نجد إشارة صريحة في النصوص الدينية على أنه تعالى أخذ عليهم الميثاق أى على الأرواح في يوم الذر - وهم في كفه تعالى . ونجد أحاديث عديدة في تفصيل كيفية أخذ الميثاق، ونجد إشارة لمسألة الكف واليدين، ومن ذلك ما رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ﴿لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل رجل منهم وبيناً من نور، ثم عرضهم على آدم .. الحديث) . والإشارة الصريحة للكف نجدها في قوله صلى الله عليه وسلم مما رواه ابن جرير وابن مردويه عن هشام بن حكيم رضى الله عنه (إن الله عز وجل قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة مسيرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ليسوا بعمل أهل النار. كما نجد إشارة إلى نشرهم بين يديه تعالى في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرها بين يديه ثم كلمهم قال (أأست بربكم ..).

المعرفة بدر النور المتمكن فيه وهو نور المعرفة.

فالتقى النور الميثاق الذى غشيهم، وسطع من الجليل عنه التجلى فتشاكلا، ولم يتشابهها، دلا على ربهما، فاستدل العبد على ما سطع يوم الميثاق بما كان عنده من النور الذى وضع فى آدم، فدل كل واحد منهما على نفسه آمن العبد وأيقن واستقر وعرفه. ومثل ذلك مثل القدح. فالنور كالنار، والمعرفة كالحديد متمكن فيه النار، وهو النور الأول يوم المقادير، والحجر التجلى، يوم الميثاق، والنور متمكن فيه، والقلب كالقطنه المندوفة^(١)، فلما قدح^(٢) العبد الحجر بالحديد، خرج منهما النار، فالتقى على القلب قبلهما القلب، فنوراه ودلاه على الله عز وجل.

وأما الكافر فإنه لما سطع نور الجليل على عينه يوم الميثاق، وناله فمسه الكف، وقربه الكلام لم يكن عنده ما يستدل به عليه فيعرفه، تاه وتحير، وذلك أنه نسى الصنيع الأول بترك استعماله تلك الخمسة، وصارت حديدته وهى المعرفة، كأنه لا ماء فيها، فلم يعمل ذلك السطوع وتلاشى النار، وبطل، ولم يقبل القلب، إذ لم يجد شاهداً على ذلك، فصار مشتبهاً مشركاً قال الله تعالى ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾^(٣).

فالبينة التى هى من ربه هى النور المقاديرى، والشاهد الذى يتلو من النور الميثاقى، وقال: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة﴾^(٤)، وقال:

(١) المندوفة: أى المنفوشة . نَدَفَ الْقُطْنُ نَدْفًا : نفشه بالندف ليرق، فهو مندوف ، ونديف .
(٢) قَدَحَ بِالزُّنْدِ قَدْحًا: ضرب به حجره لتخرج النار منه. ويقال: قدح النار فى الزند: أخرجها منه. وقدح الزُّنْدُ: ضربه بحجر ليخرج النار منه .
(٣) سورة هود / الآية ١٧ .
(٤) سورة الأنفال / الآية ٤٢ .

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾^(١).

ألا ترى أن العين لنوره لا يبصر شيئاً، حتى يؤيد بنور المدد، ليلتقيها بنوريهما على الشيء، فتبصر الأشياء.

فنور العين نور المعرفة متمكن فيها؛ وهو النور الذى وضع فى آدم، ونور المدد النور الميثاقى من الحلال. وهو نور النار، أو السراج. فما لم يلتقى النوران على العين لم يبصر الإنسان الشيء فكذلك ما وصفنا.

ألا ترى أن إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم لما نظر إلى الكوكب والقمر والشمس قال هذا ربى، فلما استعمل الخمسة الأشياء، واستدل بما كان عنده، ولم يتفق، ولم يشاكل، نفاه فقال: لا أحب الأفلين^(٢).

وتزامن كل واحد منهما، ذلك أنه لما وقع بصره على النور. ظن أنه نور ربه فقال هذا ربى، فلما استدل بما كان عنده من النور المقاديرى الربانى والنور الميثاقى المزيدين، واستعمل قدحه الذى ذكرنا لم يعمل شيئاً، وتلاشى ذلك النور فى جنب ما كان عنده ولم يتشاكلا، ولم يدلا على ربه كما دل الأولان، ولم يعتل^(٣).

(١) سورة الزمر / الآية ٢٢ .

(٢) يشير الشيخ رحمه الله إلى الآيات الكريمة فى سورة الأنعام من ٧٥ إلى ٧٩، وهى قوله تعالى :

﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الأفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لنن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغاً قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون * إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ .

(٣) اعتل الرجل ونحوه: مرض . واعتل بالأمر: تشاغل وتلهى . ويريد الشيخ أن يلمح إلى إحدى صور مرض القلب، وهو اعتلاؤه، بتشاغله بالدنيا وزخارفها .

فطنة قلبه، ورآه زائلاً. علم أنه ليس من ذلك النور، وتبرأ منه، وفزع إلى ربه فقال: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾^(١).

وذلك من الله عز وجل له ابتلاء واختبار، إذ أراد أن يتخذ له نفسه خليلاً، ولا يتوهم فيه أنه شك في ربه، ولهذا غور بعيد لا يمكن صفته، وفي قدر ما وصفنا كفايته المستنبط العليم .

تفسير قوله تعالى ﴿ألست بربكم﴾:

تفسير قوله ﴿ألست بربكم﴾^(٢) - قال له قائل: فقوله: ﴿ألست بربكم﴾، ما هذه الألف ها هنا؟

قال له وجهان: وجه باطن، ووجه ظاهر.

أما الوجه الظاهر فهو وجه للاستفهام، والاستفهام من السائل للمستول نصف الجواب، وهو التلقين والإشارة إلى ما عند المستول في قلبه من الموجود، والمُدرك، والمفهوم، والمعلوم، والموصوف، كذا وجدنا في مجارى كلام العرب.

وانما استفهم الرب في ذلك الوقت، لأن نور المعرفة كان عندهم بالخطوط التي أصابوا من أبيهم يوم الخلقة، وقربة النفخ، وقربة التصوير، وصنعة اليد.

فقال: ﴿ألست بربكم﴾ يذكرهم، ويستحفظهم، ويستجلبهم للذكر من ذلك الصنع الذي صنعه بهم يوم آدم، وما أكرمهم به من النور، ونفخ الروح، وصنعة اليد،

(١) سورة الأنعام / الآية ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٧٢ . وهو قوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾.

ليذكروا ذلك، ويستعملوا أفهامهم، وأذهانهم، فيبرزوا بهن نور المعرفة، فيستدل به على ذلك، فيعرفوه، ويؤمنوا به.

ولا تكون المعرفة أبداً دون الرؤية، والسمع، أو القرية كان ما قبل ذلك فإذا لاقاه بعد ذلك قد سبق منه إليه قبل ذلك من قرية، أو رؤية، أو لقي، أو سمع، أو صفة دالة عليه، أو آية تشير إليه بما فيها، أو معنى يؤدي عنه، فذكر نفسه ذلك، واستعمل الذهن، والحفظ في إصابته، والوقوف على معرفته، فدلله الذهن، والفهم، والحفظ، فقليل عارف.

ولا يقال هذا علم^(١)، فهو عالم. يستفهم العالم بالشئ والجاهل، فيقال: «أأستعمل الكتابة والحساب؟ والمستفهم لا يعلم أن المستفهم يعلم أن المستفهم كانت أم لا، ولا يستفهم العارف بالشئ غير العارف، ولا يقال الغير العارف^(٢): أأست بالكاتب حتى يعلم أنه به عارف؟

فإذا كان له منه معرفة قبل ذلك به استفهم، فقال: أأست بكاتب؟، فيقول: بلى فذلك هذا الإنسان على أن بنى آدم قد كانوا أصابوا حظوظهم يوم الخلقة من صنعة اليد، والنفخ، والنور، وصار ذلك عندهم رسماً على أعين قلوبهم.

(١) الفرق بين العلم والمعرفة من الأمور التي، حرص الشيخ رحمه الله على إثباتها في أكثر من موضع، ويبدو لنا التداخل اللغوي بينهما ومن ذلك: علم الشئ علماً: عرفه. وعرف الشئ: عرفاناً ومعرفة. فالعلم يفسر بالمعرفة كما هو واضح. والمعرفة هي إدراك الشئ بحاسة من الحواس. وأما العلم فهو إدراك الشئ بحقيقته. ورغم أن كلاهما إدراك لكن العلم مرتبة أعلى من المعرفة، لما فيه من تعمق واستنباط وربما أراد الشيخ رحمه الله أن يقول هنا: ولا يقال هذا عالم.

(٢) لعل السياق يقتضي أن يقول الشيخ رحمه الله: ولا يقال لغير العارف، بدلاً من ولا يقال الغير العارف، فالمستقر لدى علماء اللغة عدم استحسان دخول (آل) على (غير)، ولذا نقول: ولا يقال غير العارف، إذا كان السياق هنا يستلزم ذلك، لكن ما يتضح من الكلام السابق أن نقول: ولا يقال لغير العارف.

فلما رأوا نوره يوم الميثاق، وسمعوا كلامه، ونالوا قرية كفه استنار ذلك بما كان عندهم، فدلهم ذلك عليهم فعرفوه، فلما استفهمهم قال: ألسن بربكم؟ ألسن تعرفونى بالعلاتم، والشواهد، والبيئات والآيات التى عندكم.

قالوا: بلى، فقبل الله شهادتهم، وإقرارهم، فجعلهم عبيده من بين الخلق وصفوته ومجتابه، وأحابيه وأوليائه، وأقر الوجه الباطن فهو أن الألف أول الأسماء وأشرفها ومبتدأها، وأن جميع أسمائه التى يُعرف وما لا يعرف خرجت منها، فهو محشور بجميع أسمائه وصفاته كأن الأرضين كلها خرجت من تحت الكعبة ومدت منها مد الأديم^(١).

وكذلك خرجت جميع أسمائه منه. والألف فى الكتابة حرف منتصب من وصل ولا فصل لا انحراف فيه، ولا أعوجاج، فهو اسم الله ذلك بحرفيته وانتصابه واستقامته من غير انحراف، ولا أعوجاج، ولا تمايل على المسمى الذى هو اسمه، وأنه واحد أحد فرد صمد أبداً دائم عدل تام بارى قائم بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وهو فى التهجى وباستعمال الأدوات. يليه أحرف ألف ولام وفاء، ثم الألف منها ثلاثة أحرف، واللام حرفان، والفاء حرفان فى التهجى، وفى الكتاب حرف معرف.

(١) نجد حديثاً شريفاً يشير إلى أن أول ما خلق الله من الأرض الكعبة المشرفة، وهذا أمر له دلالة فى كون الكعبة مركز الأرض جميعها، مما أكدته البحوث الجغرافية والفلكية، والحديث الشريف هو قوله صلى الله عليه وسلم (أول ما خلق الله من الأرض الكعبة، ومدت الأرض من تحتها مداً، وأول ما خلق الله من الجبال جبل أبى قبيس، ومدت الجبال من تحتها مداً) والأديم الذى ذكره الشيخ رحمه الله يراد به إما ظاهر الشئ من قولنا: أديم الأرض. أو ظلمة الليل من قولنا: أديم الليل. أو بياض النهار من قولنا: أديم النهار.

واللام فى التهجى لام وألف وميم، والفاء فاء وتاء، فمن الألف وهو الثلاثة الأحرف يخرج ثلاثة أسماء الله، واللطف، والفاضل الله من الألف، واللطف من اللام، والفاضل من الفاء، ثم يخرج من لام ألف إسمان لطيف، ومجيد. اللطف من اللام، والمجيد من الميم.

ثم يخرج من الميم الذى خرج من اللام ألف اسمان ملك ومهيمن، ثم يخرج من ميم الملك ولامه وكافه ثلث أسماء المولى والنجى والمميت، ومن ميم المهيمن وهاته وبانه وميمه الآخر، ونونه خمسة أسماء المعطى من ميمه الأول، والهادى من الهاء، والحكيم من الباء، والمكرم من الميم الآخر، والنور والناصر من النون، فعلى هذا المثال يخرج من الألف جميع الأسماء والصفات، وهو فى الكتابة حرف، وفى التهجى ثلاثة أحرف .

فقلوه: ﴿ألست بربكم﴾ لما أراد الله أن يأخذ عليهم الميثاق. أبرز لهم هذه الألف على مثاله الذى وصفت حرفاً منتصباً فى صدورهم، على أعين قلوبهم، ثم أشار لهم حتى إذا رأوه، ونظروا إلى حرفيته وانتصابه واستقامته من غير انحراف، ولا اعوجاج، وفرديته من بين الحروف وصموته^(١) وقفوا على معنى ربهم، وهو فى القول ثم قال: ﴿ألست بربكم﴾، والألف بمثاله على أعين قلوبهم، يسيرهم إلى وحدانيته الملك، ويدلهم آياته وصفاته، فأجابوا ربهم بلى.

واستدلوا بأسمه الألف بحرفيته واستقامته ودلالته على ربهم وشهدوا له بالوحدانية، وأقروا له بالربوبية، وأيقنوا بالفردية، وأعلموا أن الله تعالى إنما أبرز لهم هذا الإسم من بين أسمائه وصوره على أعين قلوبهم، ليستدلوا به عليه، ويعرفوه

(١) الشئ المصمت هو الذى لا فراغ فيه، وهذا الأمر ينسحب على حرف الألف .

بآيات التي تشير، الألف بما فيه إليه، ويوقنوا بالمعاني التي تؤدي الألف عنها،
ويقرّوا بالصفات التي يدّهم الألف عليها، فاستدلوا بوحداية الألف على أن المسمى
الذي الألف اسمه واحد أحد.

واستدلوا بفرديته على أنه فرد، واستدلوا بانتصابه واستقامته على أنه عدل
قائم بالقسط، واستدلوا بصموته على أنه صمد^(١)، واستدلوا بحرفيته على أنه وتر،
واستدلوا بنونه على الرّصل والفصل على ديمومته وقدمه، واستدلوا ببعده عن أن
يشبه الأشكال على بونه وبعده عن الكيفية ومنتهى وحدوديته.

فعرّفوه بالصفات، والآيات، والبيّنات معرفة بلا كيفية، ولا محدودية،
وأقرّوا له بالرّبوبيه، ولأنفسهم بالعبودية، فأجابوه بثلاثة أحرف، وهى الباء واللام
والياء. فقالوا: بلى. فرضى عنهم، وقبل منهم. وجعلهم فى كنفه ثم صب عليهم
النور، وأشهدهم على أنفسهم، وأشهد الملائكة بذلك عليهم، وكفى بالله شهيداً،
ولهذا غور بعيد لا يمكن استفراغه، ولا استفحاصه، ولكن فى قدر ما وصفنا كفاية
وهداية لمن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وإنما أجابوه بلى، ولم يجيبوه بنعم، وبلى ثلاثة أحرف ونعم أيضاً كمثله ثلاثة
أحرف، لأن فى بلى ما ليس فى نعم، وفى نعم ما ليس فى بلى، وإن كانا فى
الحروف سواء لأنه ليس لنعم عند الاستفهام موضع، ولا معنى. لأنه ليس فى
حروف نعم ما يكون جواباً للاستفهام، ولهذا غور بعيد. لا يمكن وصفه، ولكن
سنشرح منه شيئاً ليفهموه. إن الباء اسم يخرج منه اسم البر، والبر، والرب واحد

(١) الصمد: الذى يُصمد إليه فى الحاجات والصمد هو السيد المحتاج إليه فى النوازل والخوائج وقال
الحسن وعكرمة والضحاك وابن جبير: الصمد المصمت الذى لا جو له .

فى القلب، فلما قال الله تعالى يوم القيامة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ .

نظروا فقالوا: إن لله أسماء كثيرة. وإنما استقررنا من بين أسمائه باسمه الرب^(١)، والرب من البر، والبر مخرجه من الباء، والباء حرفان باء، وألف، وإنما يريد ربنا أن نقر له باسمه البر، ونجيبه به، والباء الذى فى أوله بالإضافة. والثانى اسمه البر، والبر^(٢) من البار، وفى البار الألف، وهو اسمه الأول، فأقروا له به وأجابوه باسم هو فى الحروف حرفان باء وراء، والألف فيما بينهما مندمج لا يبرز إلا فى وقت تهجى الباء ليكون إقرارهم له باسم الله، وجوابهم له بحرف يوافق حرفه الذى ابتداء أول كلامه من قوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ الباء الذى قبل الراء وذلك أنهم إذا أجابوه بالباء ودخل فيه أشرف الأسماء، وأولها وهو الألف. مع ما وافقوا فى جوابهم له ببائهم الذى ابتداء، وجوابهم من قول الرب: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾، وقولهم: ﴿بلى﴾ فجعلوا مفتتح الجواب بمفتتح الاسم الذى استقرروهم واستفهمهم به ليتفق الباءان من الكلام من قوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ وقولهم ﴿بلى﴾ فوافقوا فى الجواب بابتداء الباء بأن وهو بالبر لا بالإضافة، ووافقوا فى المعنى الذى أراد أن نقروا له من جميع أسمائه بالألف إلا أنه على ما أشار إليه، ومثل لهم يديا.

(١) الرب هو الإله المعبود المالك سبحانه، وهو السيد القيم والمدير. والجمع أرباب وربوب وفى أسماء الله الحسنى التى وردت فى حديث الترمذى عن الوليد بن مسلم عن شعيب لم نجد اسم الرب سبحانه. وقد وردت كلمة "رب" صفة لله تعالى فى القرآن العظيم فى أربع وثمانين آية كريمة. وذلك فى مثل قوله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الفاتحة : ٢ .

(٢) البر من أسماء الله تعالى الحسنى، وقد ورد فى موضع واحد فى القرآن العظيم، وهو قوله تعالى ﴿إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ سورة الطور : ٢٨ .

فالباء ها هنا قالب الألف، والمعنى ما فى القلب لا القالب، فقله با إنما هو أب. ولكن جعل الباء له، فالباء والألف مندمج فيه.

فإذا قلت با فقد قلت أب. فالمعنى ما فى القلب والمشار إليه، والقالب الاستعمال. ألا ترى إلى حروف الجد إنما ابتداء أول حروفه بالألف، ثم الباء، فقالوا أب جد الألف منه معنى اسمه الله، والباء معنى قولهم بلى وإلى حروفها الثمانية والعشرون ألف باء تاء.

وإنما جمعوا بين الألف والباء ها هنا، وجعلوا مفتتحه بالألف وتاليه الباء، لأنهم لم يكتفوا بالألف المندمج للعامة عند الاستعمال، فقلوبه، وجعلوا كلامهم ألف مندمج، وجعلوا تاليه الباء كما هو فى الأصل، لأنهم علموا أن المبتغى الألف والباء الاستعمال، فأبرزوا ما كان مندمجاً، وجعلوه مفتتح كلامهم، وجعلوا التالى الباء، فقالوا ألف وباء.

ولو تركوه على ما كان بسط أن يقال لها باء البر وباء بلى، والألف مندمج فيها بينهما، ولكن علموا أنهم إذا قالوا ألف دخل فيه كل اسم، ثم إذا قالوا باء ان قد دخل للباء مرة من الألف، ومرة الآن، فهذان باءان ومبتداهما الألف فرحوا^(١) إحدى البائين، وهو الذى من الألف مندمج، وتركوا الباء الآخر المبرز على حاله، والباء للألف علامه ورسمه على القلوب ليوم الميثاق.

وجوابهم ربهم ﴿بلى﴾ قيل له. فاسم آدم ما لى أراه ألفا، والبدال تالية، وليس تالى اسمه الباء، وجواب البشر^(٢)، قال له اسمان أحدهما اسم الحلقة، والآخر

(١) رَحِمَ الصوت، والكلام - رخامة: سهل. فهو رخم، وهى رخيمة، ورخم.

(٢) هكذا بالأصل.

اسم الفعل.

أما اسم الفعل فإنه أب البشر ففيه الألف والباء تاليه، وأما اسم الحلقة فهو آدم الألف مبتداه، والبدال تاليه، لأنه لم يؤخذ عليه الميثاق يوم الميثاق، ولم يستفهم، وإنما عفى عنه^(١) لأنه كان مصور يده، قد شاهد القربة، ونال نور الجلال، وأبدل، فكان الميثاق عرض الأمانة فجعل مبتدأ اسمه الألف علامة لمعنى اسمه الله والبدال علامة الحلقة، إذ خلق من آديم الأرض.

لأن الله كان عالماً به أنه إن خلقه من نور أو ذهب أو من فضه، ثم ناله قربه ربه، وبها اغتر وتجر باتفاق النور والعز والقرية، وغلبا عليه فأهلكاه.

ألا ترى إلى إبليس كيف تجبر واستكبر بأصل خلقته، وهو نار العزة على آدم في سجوده حتى كفر وكيف مال إلى الدم في الحلقة فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٢).

فعطف الله علينا بنى آدم، إذ خلق أبانا آدم من الزاب، وعصمنا به من دواهي^(٣)

(١) إعفاء آدم عليه السلام من الميثاق أمر ذهب إليه بعض المفسرين، لكننا لم نجد دليلاً يؤكد ذلك والتحقيق في هذه المسألة، أن ثمة رأياً بأن الله تعالى استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه. ونجد رأياً آخر: أن الله تعالى أخذ الميثاق من الذرية في صلب آدم عليه السلام، وميزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. ونجد كذلك من الأحاديث النبوية ما يشير إلى استخراج ذرية آدم من صلبه، ثم أخذ الميثاق عليهم. ولعله من البدهة أن يشهد آدم عليه السلام هذا الميثاق، لكونه مطالباً بالإيمان والتوحيد كذلك والله تعالى أعلى وأعلم.

(٢) سورة الأعراف/ الآية ١٢ - سورة ص/ الآية ٧٦.

(٣) الدواهي: أى ما يصيب الناس من عظيم نوبة أى الدهر. والداهية: الأمر المنكر العظيم.

أنفسنا، وخلصنا من المهالك برأفته - وليس تجرى أسماء الخلق على هذا السبيل الذى وصفنا - إنما ذلك سبيل آخر، وسبيل مجرى الأسماء. أسماء الخلق، ومدارها على نحو آخر، وهو ما يخرج من أفعالهم، وأخلاقهم، وطبائعهم، وتصرفهم من حال إلى حال.

وأما الموضع الذى تجعل تالى الألف فهو سبيل مجرى الكلام، وهو على ما ذكرنا بدياً أن الألف اسم من أسمائه، وأول الأسماء وأشرفها، هو الدال على طبائع الخلق وخالقهم، فالألف ألف المعرفة، واللام علم المعرفة، ولا تكون المعرفة إلا مع علمها إلا فيما وصفنا بدياً فى يوم الميثاق. فإن الله أخرج الألف يومئذ بغير علمها وهو قوله ﴿ألست بربكم﴾.

وكان سبيله مع العلم أن يقول: إن الألف مع اللام، ليكون بروزه مع العلم، ثم يقول: لست بربكم، فإن اللام فى قوله لست ليست بلام علم المعرفة. وإنما هى لام لست فالألف مع اللام معرفة مع العلم كقوله الدار والرجل. فالألف اسم يدل على المسمى، واللام علمها وهو المصدق لها، والنكرة أن يقول رجل ودار ليس فيها معرفة، ولا علم وهو اسم مصمت.

وإنما أخرج الله يومئذ الألف وحده من غير علم. لأنه أحب أن يعرفوه، ويقرؤنه غيباً من غير علامة يرون، أو إشارة يبصرون سوى الذى فى الألف. إن فى حشوه من الدلائل والعلائم والبيانات والدلالات ما يحققهم على وحدانيته ويدلهم على فردانيته من غير علم المعرفة، فأخرج الألف دالاً بصفاته عليه من غير لام، كالنكرة وليست نكرة إنما هى معرفة بلا علم، ليكون معرفتهم به، وإقرارهم به غيباً. كما دعاهم إليه غيباً، فمدحهم وثنى

عليهم،^(١) ويباهى بهم خلقه الآخرين فقال ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾^(٢).

فقال له قائل: فقلوه: ﴿هو﴾ آية كلمة هي، وما في حشوها. فإني أسمع الله يشهد وملأ نكته، وأولوا العلم. على أنه هو. وقال في سورة الإخلاص قل يا محمد ﴿هو الله أحد﴾^(٣)، وقال في آخر الحشر ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾^(٤)، ثم قال في موضع آخر ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله * واستغفر لذنبك﴾^(٥)، وقال في آية آخر ﴿لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^(٦).

قال هيهات هيهات: أن يكون لهذا العلم في أنامك مساعاً. فإن هذا علم جليل دقيق، ولكن سنذكر منه شيئاً لتستدل به على ما نريد قوله: ﴿هو﴾ فإن هو كلمة محشو بصفاته الإلهية، والفردية، والجلال، والملك، والعزة، والقدرة، والسلطان، والجبروت، وهو حرفان هاء وواو.

فالهاء منها الهداية أي الله هو الهادي، والواو الوله لأن الوله لا يجوز، ولا يستحق إلا الله فمستقر جميع الصفات الذاتية، والأسماء الرفيعة في الهاء، والواصف لها، والدليل بما فيها للخلق، والمشير إليها، والمعبر عنها، والمؤدى معناها بكهنه الألف.

(١) ثنى هنا قد يراد بها العطف على الشيء، أو تعدى بالألف (أثنى) فتكون من الثناء أي الوصف بالخير .

(٢) سورة البقرة / الآية ١-٣ .

(٣) سورة الإخلاص / الآية ١ .

(٤) سورة الحشر / الآية ٢٢ .

(٥) سورة محمد / الآية ١٩ .

(٦) سورة الأنبياء / الآية ٢٥ .

ونص الآية الكريمة ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ .

ألا ترى أنه لما قال ﴿قل هو﴾ لم يلد على صفاته. حتى قال الله، فأبرز الألف ثم قال: ﴿أحد﴾ ثم قال: ﴿الله﴾ فأبرز الألف، ثم قال: ﴿الصمد﴾ فأبرز الألفات قبل الصفات .

أولا ترى إلى قوله ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو﴾^(١) فسكت، ثم قال ﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾^(٢)، ثم قال ﴿هو الله الخالق البارى﴾^(٣)، لم يكتف بهو فى تلك المواضع حتى ذكر بعده الله.

ثم وصف فهو كلمة لا ينطق بما فيها، ولا يدل، ولا يشير ولا يصف، وهى محشو بها، والألف المعبر عنها بما فيها، وهى فى الكتابة حرف. فالألف فيه مندحجة لا تظهر إلا عند القراءة والتهجى، وأما الواو الذى يتلوه فهو اسم له، والخلق إليه فى المقادير، ووصف نفسه وصف بهو لأن فيه علم الغيب، ودعاهم إليه به فقال ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾^(٤)، ولما دعاهم إليه يوم الميثاق دعاهم إلى ﴿أنا﴾ فقال ﴿لا إله إلا أنا فاعبدوني﴾^(٥) إقرار أن يعبدوه فى الجملة، ولما دعاهم إلى عبادته ودعائه إلى اسمه الله فقال ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾^(٦)، وقال ﴿لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري﴾^(٧).

فقوله: ﴿هو﴾ اسم لا ينطق ولا يدل وقوله: ﴿أنا﴾ اسم مضمّر فيه اسمه الله، وقوله: ﴿الله﴾ اسم واضح دال واصف .

(١) سورة الحشر، الآيات/ ٢٢-٢٤ .

(٢) آل عمران / الآية ١٨ .

(٣) سورة طه / الآية ١٤ .

(٤) سورة محمد / الآية ١٩ .

(٥) سورة طه / الآية ١٤ .

تفسير اسم إبليس:

قيل له فاسم إبليس أراه ألفاً، وتاليه الباء. ما معناه؟

قال: ذاك ليس من هذا المعنى في شيء. ذاك اسم سماه الله به يوم أبى عليه بالسجود لأدم، أخرجه من فعله، وأما اسمه الذى هو اسمه فهو عزازيل فهو اسم الخلقة فى البدء، وذلك اسم سماه الله به من فعله الذى بدا منه^(١).

فأما تفسير اسمه عزازيل. فإن العزاز العبد، والإيل الدب، والعز مأخوذ من العزة، وذلك أنه خلق من نار العزة، والعزة بالله خمسة أحرف^(٢)، والعزاز أربعة أحرف، وكل حرف منها يدل على فعله إذ كانت الأسماء تدل على الأفعال، وهو العين والزاي والألف والزاي الآخر.

فمن العز خرج علوه، ومن الزاي خرج زهوه، ومن الألف خرج إباؤه واستكباره، وأما الزاي الأخرى فهو وكذا الكلام، وغضبه الإتمام الغالب فى العربية كقوله الرحمان وسبحان، وإنما المتبغى منه الرحم والسبح وإما أن منهما. فهو قالب على مجرى فعالن، فهو هذا تفسير اسمه عزازيل.

وأما تفسير اسمه إبليس. فإنه خمسة أحرف، كل حرف منها يدل على فعله الذى هو فيه، ويبدأ منه، وهو الألف والباء واللام والياء والسين. فأما الألف فإنه ألف الإباء، والاستكبار، إذ كان إباؤه من الاستكبار. كما قال: ﴿أبى واستكبر

(١) قال محمد بن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهداً، وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جنأ.

(٢) كلمة (خمسة) غير موجودة فى المخطوطة، حيث جاء الكلام هكذا (والعزة بالله أحرف) ولعله يقصد خمسة أحرف لكون السياق يقتضى ذلك.

وكان من الكافرين ﴿١﴾، فإبازة من الاستكبار، واستكباره من الكفر، وأما الباء فإنها من الباء حيث برئ من ربه. يترك السجود، وأما اللام. فإنه للآل، وأما الياء فإنه ياء لم يكن. يقول لم يكن، وأما السين فإنه سين السجود، فإذا اجتمعت الحروف كلها أدى المعنى على أنه أبى على ربه، واستكبر. ولم يكن من الساجدين لأدم مع الملائكة، قال الله تعالى ﴿إلا إبليس لم يكن من الساجين﴾ (٢).

تفسير اسم إبراهيم عليه السلام:

قيل له: فاسم إبراهيم - عليه السلام - أخرج أيضاً مبتداه بالالف ثم الباء، اشرح لنا منه شيئاً.

قال: وأما تفسير اسم إبراهيم عليه السلام. فإن كل حرف من اسمه دليل على قوله الذى كان مندجاً فيه منكمناً كالنار فى الحديد. وعلى ما خرج منه يوم الابتلاء والاختبار، فأما الألف فللإبتلاء حيث قال الله له أسلم قال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ (٣)، فشهد الله له بذلك ولأنه استحق فقال: ﴿فلما أسلما وتلاه للجبين﴾ (٤).

ويحتمل أن يكون ألف الإخلاص، إذ شهد له ربه بل الإخلاص إنه كان مخلصاً.

(١) سورة البقرة / الآية ٣٤ .

(٢) سورة الأعراف / الآية ١١ .

ونص الآية الكريمة ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ .

(٣) سورة البقرة / الآية ١٢١ .

(٤) سورة الصافات / الآية ١٠٣ .

ويحتمل أن يكون على ما ذكرنا جدياً من أن الألف اسم الله، والباء علامة جوابهم بلى، وحل حسن. وأما الباء على التفسير الذى ذكرنا: أن الألف ألف الإسلام فإنه باء البراء، حيث قال ﴿إني برئ مما تشركون﴾^(١)، حيث قال ﴿إنا براء منكم وما تعبدون من دون الله﴾^(٢)

وأما الراء فإنه الرؤيا حيث قال: ﴿يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك﴾^(٣). وأما الهاء فإنه هاء الهم، وأما الياء فإنه ياء التصديق فإذا جمعت بين الحروف صار كلاماً، وأدى المعنى المتبغى منه فى القول: أنه أسلم لربه فيما رأى من الرؤيا، وهم أن يصدق رؤياه بلذبحه أبنه.

فاكتفى الله بهمه، وعفا عنه، ورضى عنه، وفداه بكيش^(٤)، وأما الميم التى تعقبه فإنها ميم ﴿مه﴾ حيث هم بلذبحه قال الله له مه، فسماه الله بذلك الاسم، ولم يظهر بعد منه هذه الأفعال لعلمه به، وبما يبدو منه، بعد ذلك.

تفسير اسم فرعون:

قيل له: اسم فرعون أحيينا أن تشرح لنا منه شيئاً، ليكون لنا فائدة.

(١) سورة الأنعام / الآية ٧٨ .

(٢) سورة الممتحنة / الآية ٤ .

(٣) سورة الصافات / الآية ١٠٢ .

(٤) يشير الشيخ رحمه الله إلى قوله تعالى فى ختام ذكر قصة الذبيح فى سورة الصافات: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ آية ١١٠ . أى هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً. كما قال تعالى ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدراً﴾ الطلاق ٢ ، ٣ .

قال : أما تفسير اسم فرعون^(١) فإن له اسمين؛ أحدهما الوليد، والآخر فرعون، وكلّ يدل على فعله، وسوء سيرته الذى منه بدأ.

فأما الوليد فإنه أربعة أحرف، واو ولام وياء ودال؛ فالواو واو الويل، واللام لام اللعنة، والياء ياء يوم، والدال دال الدين؛ فإذا اجتمعت بينها أدى المعنى إلى أن عليه الويل واللعن يوم الدين.

فهذا اسم قد ساء الله به، وحشوه ما يصل إليه فى الآخرة مندمج فيه من الويل واللعنة، وأما الاسم الآخر وهو فرعون؛ فهو خمسة أحرف وهم الفاء والراء والعين والواو والنون، فالفاء الفراق والتفريق، والراء الركوب والركون، والعين عين العلو، والواو واو الويل، والنون نون النار؛ فإذا جمعت بين حروفه الخمسة أدى المعنى إلى أنه حيث ملك فارق دينه، وفرق بين بنى إسرائيل، وركن إلى الأرض، وركب هواه، وعلا على ربه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

وكما قال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٌ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

وكما قال بنفسه وادعى الربوبية ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٤) فهذا ما بدا منه فى الدنيا، وأما الواو والنون فله الويل والنار يوم القيامة فى خزي وهوان أبد الآبدين^(٥).

(١) الفرعون أصله: فَرَعَنَ أى تجبر وتكبر. وتفرعن فلان: تجبر وطغى.
والفرعون : لقب ملك مصر فى التاريخ القديم. ولقب كل عاتٍ . والجمع فراعنة.

(٢) سورة القصص: آية ٤.

(٣) سورة يونس: آية ٨٣.

(٤) سورة الذارعات، آية ٢٤.

(٥) هذا المعنى موجود فى آيات كثيرة، منها قوله تعالى ﴿فَاخْلُدْهُمْ فِي جَنَّتِهِمْ وَلَئِنْ لَبِثُوا فِيهَا إِلَّا نَارًا﴾. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿٤٠ - ٤٢﴾ القصص. ومنها قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ غافر ٤٦.

تفسير لا إله إلا الله:

قيل له: فتفسير لا إله إلا الله ورحمته. إن وفق الله لك أن تذكر لنا منه شيئاً
شكرنا الله لك ودعونا لك بالسداد والرشيد.

قال: فأما تفسير لا إله إلا الله. فإنها في الحروف عشرة أحرف لا، إن، وها،
إن، وثلاث ألفات، وثلاث لا مات، فأما إله فهو ثلاثة أحرف، والإسم منها في
الألف، وهو الإسم المنحول المستعار للاهتمام مأخوذ من إسم ربنا الله اختلاقاً
واستراقاً.

وأما الله فهو أربعة أحرف، والإسم منها في الألف، والألفان اسمان أحدهما
مخفى بالتحقيق، وهو الله إسم ربنا، والآخر مستعار مسروق منحول مختلف، والهاء
أن علماً أهويته إلى المنسوب إليه الألف، وهو الإسم في قوله ﴿إله﴾ وقوله:
﴿الله﴾.

وأحدهما التحقيق، والآخر مستعار كما ذكرنا. فإذا قلت: لا إله فلا النافي
لألف الإله لأنه الإسم المستعار فيه وهو اسم الصنم. وإذا قلت إلا الله. فالف إلا
هو الميثب لألف الله. لأن الإسم المستحق فيه، وهو إسم ربنا جل وعز، وأمالا فهو
عماد الألف ها هنا، لأن الألف لا يمكن عبارته باللسان دون اللام، إذ هو علمه،
وكذلك اللام لا يمكن استعماله إلا مع الألف، وإن استعمل دون الألف ذهب
المعنى وتلاشى المراد وبطل المبتغى وصار كلاماً آخر يؤدي إلى معنى آخر.

ولأن الكلام التام عند العرب لا يكون أقل من ثلاثة أحرف إلا في حروف

قليلة، منها قوله الله عز وجل "كن"^(١) وهو حرفان خرج منهما الملك والملكوت، وشأن الدارين، وأمر الآخرة، وذلك تقدير العزيز العليم أخرجه من خزائن الربوبية فقوله "كن" إنما في الأصل حرف، والنون قائمته. فلو قال ربنا لما شاء أن قال له ك من غير نون كان ما شاء، ولكن أحب أن يخرج مع القائمة، ليفهم خلقه كلامه، ومعناه في تنزيله في شرائعهم على لغاتهم وألفاظهم، وليكون أيسر على ألسنتهم وأفهم المسامع على المراد^(٢).

تفسير بعض رؤوس السور القرآنية :

ألا ترى إلى بعض رؤوس السور المهمة كيف تاه الناس فيها، وكيف اختلفوا في تفسيرها، وهي الطواسين والخواميم^(٣)، وألف لام ميمات وغيرها، وهو ثلاثة أحرف وأكثر.

فلو أنهم تاهوا فيها إذا هم أتوه في قوله طس، ويس، ونون، وكل حرف منها محشو بمعان وصفات وإنما هو بعض من كلام، كما قالوا إن ألم، الألف منها

(١) كلمة "كن" وردت في إحدى عشرة آية كريمة، منها ثمانية مواضع وردت إشارة لمشينة الله في الخلق، ومن ذلك قوله تعالى (فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) البقرة ١١٧ .

﴿إنما قولنا لشيء * إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ النحل : ٤٠ .

(٢) لعل الشيخ رحمه الله يقصد بالمساميع المستمع الآن ثمة فرقاً بين السماع والاستماع، فالسماع هو تلقى للكلام دون تفاعل جيد، وإنصات وتركيز، والمتلقى عندئذ يقال له السامع. أما الاستماع فهو جهد مقصود يبذله المتلقى بإنصات وتركيز، مما يقضى إلى التفاعل الجيد مع الكلام، ونقرأ في هذا قوله تعالى ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ الأعراف : ٢٠٤ .

(٣) الطواسين هي السور الكريمة الثلاث (الشعراء - النمل - القصص) حيث إن بداياتها بالترتيب: طسم - طس - طسم . والخواميم هي السور الكريمة التي تبدأ بجم، وما يزداد عليها، وهي سور (غافر - فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف) .

إسم ربنا الله، واللام إسمه اللطيف، والميم إسمه الملك، فانظر كم حرف اللطيف وكم حرف الملك، وكم حرف الله، وكم حرف الألف من الله، وكم حرف اللام من اللطيف، وكم حرف الميم من الملك .

وقد قال بعض المفسرين إن الألف ألاء الله، وأن اللام لطف الله، وأن الميم ملك، ويقال أيضاً الألف إسم الله، وأن اللام إسم جبرائيل وأن الميم إسم محمد صلى الله عليه وسلم.

فقوله "كن" هو حرف كقوله "نون"، وقوله "ق"، والنون قائمته ليكون للسامع أفهم، وللفاعل^(١) أيسر، واشبع في الكلام، وأتم في الغالب، فلا. كلمة نفى. وإلا كلمة إثبات.

ولا يكون إثبات إلا بالألف ويكون النفي بغير الألف لأن الألف في لا مضممر مندمج فيه.

فإذا قلت لا علمت أنه لام وألف، وإذا قلت إلا علمت أنه لام وألفان أحدهما قبل لا والآخر بعد لا.

ولا في الكتابة حرف له فرعان من أصل واحد، وفي الكلام لا يظهر إلا بفتحة اللام ومدته فاكتمى الله بنفى كل معبود دونه بحرف وهو لا، ولأنه وإن كان حرفاً واحداً في الكتابة فإنه حرفان في الأصل لام وألف، والفرعان اللذان فيه يدلان على ذلك، وخفى على الناس معرفة ذلك، والألف أشرف أسمائه وأغرها^(٢)

(١) أى المتدبر والتأمل في الأمور .

(٢) من الغرة، وهى مقدمة الشئ، وطلعت غرة الرجل: وجهه، والجمع: غُرر والأغر: ذو الغرة . يقال: يوم أغر، وليلة غراء .

فاكتفى فى النفى وإن كان حرفاً مضمرًا فإن له سلطانا ينفى وحده إسم كل معبود يسموا باسم الله اختلافًا واستراقًا وابتهالاً واستعارة.

ولم يكتفى به عند الإثبات حتى أبرز ألفاً سوى الألف الذى فى لا، وترك الألف الذى فى لا على، حاله تأكيداً وتثبيتاً، فقال عند النفى لا حرف واحد وهو اللام، وفيه الألف المضمر، وقال عند الإثبات إلا فتترك لا على حاله، وأبرز ألفاً آخر قبله، ليكون حرفان ظاهران ألف ولام سوى الألف الذى فى لا، لنلا يكون إثباته النفى فى قوله ليميز الإثبات من النفى بالألف الذى أبرز قبل لا.

تفسير لا إله إلا الله (كلمة التوحيد):

وأما ترجمة لا إله إلا الله. فليس على ما ذهب إليه العامة، ولا على ما فسره المفسرون، ولا على ما ترجمه المترجمون، وقد غلطوا فى ترجمته وتفسيره، وقصلوا غير سبيله، وشرحوا الظاهر، وكنموا الباطن، وما فى حشوه، وذلك أنهم ترجموا قوله: ﴿لا﴾ بالأعجمية ﴿نيست﴾ وهو خطأ بين، وكيف يشبه لا بليس، أم كيف يشبه بالأعجمية نيست؟.

ولو كان كما ذهب إليه الناس من قولهم لا إله ﴿نيست خدای﴾ لكان ليس إلهاً على قياس قولهم، ولكنهم بالخطأ يتكلمون، وبالحال ترجموه، وإلههم ينفون لا إلهه. وسنبين لك خطأ قولهم ومحال ترجمتهم، ويكون على علم منه إن شأى الله، وبالله التوفيق^(١).

(١) معنى (لا إله إلا الله) أى لا معبود بحق إلا الله، وهى تنفى الإلهية بحق عن غير الله سبحانه، وتثبتها بالحق لله وحده، كما قال تعالى فى سورة الحج ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ آية/٦٢ وشروطها ثمانية جمعها بعض أهل العلم فى بيتين، هما :

علم يقين وإخلاص وصدقك مع	محبة وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما	سوى الإله من الأشياء قد ألها

إعلم أن ﴿لا﴾ كلمة نفى وتنزيه، أبرزها الجليل، لتنفى بها كل معبود دونه عن أن يكون مثله، وتنزه بها ربك عن أن يكون له شبيه أو يكون له في ملكه شريك أو ولد، كما زعم الكفار والمشركون، وكفرة أهل الكتاب.

والنفى والتنزيه هو التسييح والتبرئة، وأما ليس فهي كلمة جحود وإنكار، وليس للإنكار والجحود هنا معنى ولا موضع إنما ها هنا موضع النفي والتبرئة، وهما التنزيه والتسييح.

وقد دعا الله الخلق إليهما، وأمر لا بالجحود والإنكار، وذلك أن القوم لم يكونوا ينكرون ويحذون أن ليس في السماء إله، ولكنهم يزعمون أن له ولداً يشبهه وهو عيسى، وأن له شريكاً في ملكه، وهو هؤلاء الأصنام^(١)، وأنه قد اتخذ صاحبة وهي مريم، وأنه اصطفى البنات على البنين وهم الملائكة، وإن الشمس والقمر والشجر والكواكب له شركاء في ملكه.

وقال: قال الله تعالى في كتابه، يحكى عن قولهم: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾^(٢) فدعا الله خلقه إلى أن ينفوا عنه مقالاتهم الرجسة^(٣)، وينزهوه عن ذلك كله، وينفوا الألهة التي اتخذوها من دون الله، ويؤحدوه بوحدانيته في ربوبيته.

(١) يقصد : هذه الأصنام. فهؤلاء ترد مع الفاعل، والله تعالى أعلى وأعلم .

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ الأنبياء ٥٢ .

(٢) سورة لقمان / الآية ٢٥ - سورة الزمر / الآية ٣٨ .

(٣) رجس رجساً، ورجاسة: أتى رجساً فهو رجس. وهي رجسة . ورجس الشيء رجاسة: قذر .

فإذا قال لا إله، وزعم أن ترجمته ليس إله. فإنما أنكر الإله المستحق، وبه جحد، وهو الرب تبارك وتعالى اسمه لأنه المستعار وهو الصنم، لن المستعار للصنم من اسم ربنا وهو الإله لا يدخل في قوله ﴿ليس﴾، إنما يدخل الاسم المستحق وهو إسم الرب.

لأن الجحود إنما يقع على المستحق نضالاً^(١) على المستعار المنحول، وإنما يقع النفي على المستعار أو المنحول^(٢).

ألا ترى أنك إذا قلت ليس إله فقد جحدت إسم الإله الذى هو إله، وإذا قلت لا إله فقد نفيت إسم الآله المستعار المنحول، لأن الله جل وعز دعاك إلى أن توحده وتنفي ما دونه، فما يسمى باسمه الله.

وزعموا أنه إله دونه، وتنزهه وتنزيهه عن أن يكون دونه أحداً ومعه فى ملكه أحد، فاطلق لسانك على أن يقول لا إله فى ملكه أحد، وهو بالأعجمية انه ﴿خذ المست﴾ هذا الذى تزعموه أنه إله دون إلهى، وقد سميتوه باسم الله، ثم تقول: إلا الله وبالأعجمية، ﴿خذى خذ﴾ أى الذى له اسم الإله المستحق.

فإذا قلت ذلك فقد أجبتهم به، ورددت عليهم قوله، وما سموا به أصنامهم، ونفيت اسم إلهك عنه ونزهت ربك عن كل ما أشركوا فيه، وبريته عن أن يكون فى ملكه من الشبهة وأشبه ملكاً فرداً، ووحدته أحداً صمداً، وسبحته بما هو له أهل، وأصبت معنى الله بقولك فى الرد عليهم مقالاتهم

(١) ناضل عنه مناضلة. ونضالاً وتنضلاً: حامى ودافع وتكلم عنه بغيره. ونضله نضالاً: سبقه، وغلبه فى الرمى.

(٢) انتحل الشئ: ادعاه لنفسه وهو لغيره.

الرجسة، ونافحت^(١) عن ربك وانتقمت منهم نقمة ربك ولاشت أقوالهم^(٢)، وأبطلت حججهم، ودمرت عليهم تدميراً، ونصرت اسم ربك، وقدرته من أقدارهم، وفككت أسرته. وإذا قلت: لا وزعمت أن ترجمته ليس لم تكن لهم في قولك جواباً، وتلاشى كلامك، وبطل المعنى وصار النفي جحوداً، ووقع الجحود موضعه على التحقيق، فجحدت اسم ربك المستحق وهو الله.

وإن كان الضمير على غير ذلك، لأن المعنى في كلامك يؤدي ههنا إلى خلاف ما في الضمير، لأن معنك من قولك هذا على النفي وإثبات الرب، وقولك على لسانك يؤدي نفي اسم الله لا اسم الصنم، وكيف يغني عنك.

ولو أنك تقول: هات كوزاً من الماء، وفي ضميرك معنى الخبز. وإن أردت أن يظهر لك قبح ملك الترجمة وفحشتها، ورشد ترجمته وحسنه، وإصابة المعنى في التميز بينهما مثلته لك لتدركه^(٣).

فإن هذا حرف لطيف لا يدرك ما قلنا ولا يفهمه إلا من وفق للنظر، وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أرأيت لو أن لك فرساً ولرجل حمار. قد سماه فرساً، أتاك فقال: هذا فرس كفراسك، ما كنت تقول له إن قلت ليس فرس نفيت فرسك، وجحدت أن يكون فرسك فرساً لا حماراً، لأنه فرسه حمار ومتسمى باسم فرسك، ولو قلت ليس بحمار كذبت، لأنه حمار وليس بفرس.

(١) نافع عنه: دافع، ونافع فلاناً كافحه.

(٢) تلاشى الشيء: فنى.

(٣) أى ضربت لك المثل، تقريباً للفهم والإفهام.

قيل له: أشرح لنا كيف سبله؟ قال: إن قلت ليس فرس إلا الفرس لم يكن كلاماً، لأنك قد نفيت الفرس الذى هو الفرس، وجحدته قبل أن تثبته، وقبل أن تنفى فرسه أنه ليس بفرس.

ألا ترى أنك حين قلت ليس فرساً نفيت فرسك، لأنه هو الفرس، ولم تقع كلمتك ونفيك على الحمار، لأنك قلت ليس فرس، ولم يقل ليس حمار، وإن قلت ليس حمار لم يكن أيضاً كلاماً لأنك كذبت فى قولك ليس حمار، وإنما هو حمار.

فإذا قلت لا فرس. فقد رددت عليه ما جاء به من الإسم المستعار من فرسك على حمارة، ثم قلت إلا الفرس فأثبت اسم فرسك المستحق على فرسك الذى هو اسمه.

وكقول رجل للفلس: هذا دينار. فإذا قلت ليس دينار نفيت للدينار لا الفلس، لأن الفلس فلس وإن سمي ديناراً، وإذا قلت ليس فلس لم يكن كلاماً لأنه فلس، وإن قلت لا دينار نفيت الفلس المسمى بدينار، فإذا قلت إلا الدينار أثبت الدينار الذى هو دينار.

تفسير قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

تفسير قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح^(١). قال رحمه الله: قد كثرت التفاسير لهذه الآية من وجوه شتى كل حسن، ولكن التفسير ما فسره الحكماء من الحكمة العليا التى خرجت من خزائن المعرفة ونطقت بها ألسن أهل العقول من نحور الإلهام حتى سالت منها أودية ملأت الأفق.

(١)، (٢) سورة النور / الآية ٣٥ .

أما قوله عز وجل ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، فإن الأنوار كلها تسعة،
وهن كلهن من نور الله.

فأما النور الأول فنور الشمس ولباسه الضوء.

وأما النور الثاني فنور القمر وليس عليه لباس، وإنما معناها في ذلك لباس الباطن
لا لباس الظاهر، فأما لباس الظاهر فإن لكل واحد منهما لباس، فلباس الشمس من
العرض، ولباس القمر من الكرسي، هذا في المجاز.

وفي التحقيق لا يقال لما ذكرنا لباس إنما ذاك كسوة، والكسوة سوى اللباس،
فالكسوة ما يوارى العورة واللباس ما يلبس فوق الثياب، ذلك النفس وهذا للعين،
وشتان بما بينهما. ونكتة أخرى، أن الكسوة بحاجة النفس واللباس فرح القلب، وفيه ما
لا يمكن الفحص عنه، ولو قصدت ذلك طال الكتاب.

رجعنا إلى ما كنا فيه.

وأما النور الثالث فنور الكواكب، وأما النور الرابع فنور النهار، وأما النور
الخامس فنور البرق، وأما النور السادس فنور النار، وأما النور السابع فنور العين،
وأما النور الثامن فنور الجواهر، وأما النور التاسع فهو رأس الأنوار وملكها.

وذلك أنه خرج من الوحدة وعلية لباس الربوبية، يدل على الألوهية،
ويشير إلى الفردية، وذلك قوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ الْمَعْرِفَةِ
وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾^(١).

(١) الآية الكريمة في سورة هود / الآية ١٧ وليس بها جملة (فهو على نور المعرفة)، وربما ذكرها الشيخ
رحمه الله تفسيراً لكلمة (بينة)، ونص الآية الكريمة هو ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ
مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ
فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فهو نور هذه الشواهد والعلامات الذى معه يدل على الله ويشير إليه، ويؤدى عنه بالصفات الذات، والأسماء الدالات، وإنما صاراً بهى الأنوار الظاهر، وهذا نور الباطن، فبنور الظاهر ترى الظاهر، وبنور الباطن ترى الباطن^(١) لو أنك أردت أن تنظر إلى ما غالب عنك بنور بصرك لم يطق ذلك أبداً، ولكنه أخرى أن بنور الباطن ترى الظاهر والباطن كلاهما، وبنور الظاهر لا يطق الرؤية إلا للظاهر.

فجميع الأنوار التى ذكرنا بدت من ملكه وقدرته، والنور الأشرف هو نور المعرفة، إنما بدا من الوجدانية، فتلك دالة على الملك والملكوت، لأنها بدت منها، ومن نورانيته خرجت هذه الأنوار كلها، فوصف نورانيته الذى بدا من الملك لأهل السموات وأهل الأرض. ثم عطف على النور الأبهى والأشرف، وهو نور المعرفة الذى بدا من الوجدانية، فذكره وضرب له مثلاً ليفهمه خلقه، وليعرفوا كرامته التى أكرمهم الله بها من بين خلقه وليشكروه على صنعه بهم، ونظره لهم وعطفه عليهم فى سابق علمه بهم، حيث لا أرض، ولا سماء، ولا عرض، ولا كرسى، ولا قدر،

^(١) الأنوار التى يمكن استنباطها من قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ نُورٌ وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ كُلٌّ فِيهِ نُورٌ﴾ توسع فيها الشيخ رحمه الله على عادته فى هذه المخطوطة، واستطرد رحمه الله فى بيان النور الظاهر، والنور الباطن وهذا علم يناسب خصوص الخصوص من الناس .

وإذا تناولنا ظاهر الآية الكريمة، محاولين فهم كلمة (نور) لوجدنا ابن عباس رضى الله عنه يفسرها: بما فى السموات والأرض، ومدبر الأمر فيهما، ويفسرها أبى بن كعب رضى الله عنه بأن النور هو المؤمن الذى جعل الله الإيمان والقرآن فى صدره . وبعمامة فبنوره سبحانه أضواء السموات والأرض وكان من مناجاته صلى الله عليه وسلم كما ورد فى الصحيحين عن ابن عباس (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن) . وكذا كان من دعائه يوم آذاه أهل الطائف (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .. الحديث).

ولا قضاء، ولا مقادير، ولا شئ.

ونظر إليهم في هويته وفرديته وديموميته وقدمه، فاجتباهم وهداهم واختارهم لنفسه، وجعل أسماءهم عنده في سابق علمه ليوم خروجهم ودينهم بين يديه، وعينه المكنون ينظر إليهم وكنفه باخية عليهم، فيباهي بهم خلقه وخليقته، حتى يمجذونه ويشيرونه ويركعونه ويسجدون له، وحيث يسلمون^(١) سيوفهم النورانية من أغمادها^(٢) مموه^(٣) بماء المحبة، محددة باخية منه، مثقلة بالإخلاص فيهرونها بالشوق بين يدي الجليل على بساط الفرح، فتلمع سيوفهم وتشرق فيها أنوار، فتحرق الحجب هيته ويحرق^(٤) الملائكة سلطانه، وتحرق الشوك والكفر نيرانه، وترتعد من الشوق إلى صاحبها عرش الجليل وتينع ونزهر جنان الفرديس من طيبه، فيألفها من منزلة، ويألفها من شرف، لو كنت تعقل .

رجعنا إلى ما كنا فيه، فقال: مثل نوره كمشكاة^(٥) فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري توقد من شجرة مباركة، يقول: يوْقَدُ القنديل من دهن شجرة مباركة، وهي الزيتون لا شرقية ولا غربية.

يقول ليست الشجرة بشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ، يقول: يضيئ القنديل بغير نار ولو لم تمسسه نار، يقول: يضيئ ضياء لو لم يكن نار جاز نور، يقول: هو نور يعنى الزيتون على نور يقول على الزجاجاة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ

(١) سَلَّمَ : سحبه .

(٢) أغمد السيف: أدخله في غمده .

(٣) مموه : مطلية . والشئ المموه : المطلى بذهب أو فضة وليس جزهره منهما .

(٤) حَرَّ الماء والهواء وغيرهما حرارة: سخن - فهو حار . وحَرَّ الشئ حراً: سخنه . وأخَرُ: صار حاراً .

(٥) المشكاة: قال ابن عباس ومجاهد وعمر بن كعب: موضع القنبلة من القنديل .

يشاء^(١).

وأما المثل فإنه يقول: كان مثاله مشكاة، وهى المشكاة وفيها قنديل معلق قد صُب فيه ماء، وفوقه دهن الزيت إلى أن جاوز البارق، وصارت الفتيلة فيها مصبوغة، والقنديل يضئ أهل البيت بضوء الدهن الذى فيه، وهو دهن الزيتون غير نار كأنه كوكب درى فى شدة ضوئه ودريته.

وأما تفسير مثل القنديل فإن المشكاة الكوة والبيت الصدر، والمصباح السراج، والمصباح الآخر الفتيلة، والزجاجة بارق القنديل، والزجاجة الأخرى نفس القنديل ووقوده من دهن زيت لا شرقية ولا غربية بلا نار.

وأما معنى مثل القنديل فإن المشكاة وهى الكوة هى الفم، والبيت الذى فيه الكوة هو الصدر، والمصباح المنسوب إلى السراج الإقرار، والمصباح الآخر المنسوب إلى الفتيلة اللسان، والزجاجة المنسوبة إلى البارق إلى الخلق، والزجاجة المنسوبة إلى نفس القنديل القلب.

وأما الوقود الذى ذكر أنه من الزيتون هو المعرفة، وأما الذى تحت الزمن فهو ماء الرحمة، وأما تفسير القلب الذى سماه بالزجاجة من بين جميع الأشياء^(٢)، فإنما شبه القلب بالزجاجة. لأن الزجاجة جوهره أصلها من النور واستعملها بالنور، وهى النار، فلما اجتمعا ودخل سلطان النار فيها ازدادت نوراً وضياءً وبست من حرارتهما حرارة النار وحرارتها، فضعفت ورخوت.

(١) سورة النور / الآية ٣٥ .

(٢) تفسير الزجاجة بالقلب فى قوله تعالى (المصباح فى زجاجة) أمر ذهب إليه بعض المفسرين، قال أبى ابن كعب وغيره وهى نظير قلب المؤمن .

فمهما أص بها يد اللامس انكسرت من غلبة سلطان النور وحرارته عليها، لذلك قال حكيم من الحكماء: إنما شبه الله تعالى قلب المؤمن بالزجاجة، لأنها سريعة الانكسار بطينة الانجبار إذا انكسرت لا تقتل الجمر، ولا تصلح حتى تصيها النار، فسماه لضعفه وسرعة انكساره وشدة نوره وضوئه بالزجاجة التي وصف.

وأما تفسير القلب حيث شبه بنوره وضوئه ودريته بغير نار بالكواكب من بين الأشياء النورانية، فإنما شبهه بالكوكب، لأن الكوكب أصله من النور، ولباسه النور، وهو معلق من السماء، يضي لأهل الأرض من مسيرة خمسمائة عام، وأكثر بغير نار، بل بالنور الذي هو جوهره، والنور الذي هو لباسه، فشبه قلب المؤمن بضوئه ونوره^(١)، وضوء المعرفة التي فيه من الأرض لأهل السماء بغير نار، فقال ﴿كَأَنهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾^(٢).

وكما أن القنديل معلق من الهواء بجبل، والكوكب معلق من السماء. كذلك القلب معلق من السماء، وسماؤه العرش، وحبله الإيمان، وهو الإقرار به.

وأما تفسير قوله ﴿تَوَقَّدَ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيُّ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾^(٣)، قال: أما شجرة الزيتون فإن أصلها ومنبتها من شجرة

(١) نورانيه المؤمن التي يؤكد عليها الشيخ رحمه الله لما ما يدعمها من أدلة، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره يومئذ فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأ ضل، فلذلك أقول، جف القلم على علم الله عز وجل) ويقول أبى بن كعب رضى الله عنه: (المؤمن يتقلب في خمسة أنوار: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة).

(٢) سورة النور / الآية ٣٥ .

طوبى التى هى فى الجنة، أهدها الله تعالى لآدم عليه السلام يوم تاب عليه وزوده بها، وسماها باسم سوى طوبى وهو الزيتون.

ولكن بلطفه وحكمته غير حروفها وأبدل كل حرف منها بحرف آخر، وختمها بحرف زائد ليس فيها، وهى النور من الزيتون.

وذلك أن طوبى أربعة أحرف الطاء والواو والباء والياء، وزيتون أربعة أحرف أيضاً الزاى والياء والتاء وواو، وزيادة حرف فى آخره وهو النور.

فأما تفسير الزيتون فإنها فى الحروف خمسة أحرف كما ذكرنا، وهى الزاى والياء والتاء والواو والنون، وكل حرف منه يدل على فعله وما فى حشوه، فالزاى زأى الزاد، والياء ياء اليوم، والتاء تاء التوبة، والواو واو السمة، حيث وسم الله شجرة طوبى حين غرسها، ولها قصة نذكرها فى بابها إن شاء الله، والنون نون النور.

فإذا اجتمعت بين حروفها المتفرقة ذلك على أن الله عز وجل زود آدم بها يوم تاب عليه، والنون علامة النور فى الزيتون، ودلالة على أن فيها نوراً يضى القنديل بنوره من غير نار، كما قال: ﴿يكاد زيتها يضى ولو لم تمسه نار﴾ ها هنا تم الكلام، ثم استأنف الكلام فقال: ﴿نور على نور﴾^(١)، أى لأن الزيتون نور على نور الزجاجة وهى القلب والزيتون المعرفة.

يقول: كما أن دهن القنديل من شجرة الزيتون كذلك دهن القلب من شجرة التوحيد، وشجرة التوحيد هى التى ذكرها الله فى القرآن ﴿ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾^(٢)

(١) سورة النور / الآية ٣٥ .

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٢٤ .

وهى التوحيد أصلها ثابت فى قلب المؤمن وفرعها فى السماء وهو العرش، تؤتى أكلها يعنى ثمرها كل حين، كل ساعة ياذن ربها، لا ثمر إلا بأمر ربها.

وأما تفسير: ﴿مباركة﴾ فإن قصتها فى ذكر قصة طوبى وسنذكره فى موضعه إن شاء الله مع سمتها التى ذكرنا.

وأما تفسير ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ فذلك أن الله عز وجل حيث أهداها إلى آدم يوم أهداها غرسها فى تلة^(١) من الأرض ولم يكن يومئذ حيطان، توارى عنها الشمس ولا ظل، وكانت الدنيا فيافى وبرارى، أهدى إليه حبة من حبات ثمر شجر طوبى حين تاب عليه.

وقيل له: يا آدم إن فىك داعية تدعوك إلى جوهرها ولا بدلك من اتباعها، وهى جوهرة الزراب، وهى التى دعتك إلى أن أخرجتك من الجنة، وأسكنتك الأرض، وهى كما دعتك من الجنة إلى أن أخرجتك من جوارى، وأسكنتك جوهرها وهى الأرض، فهى لا تدعك أن ترجع إلى جوارى ودارى، لأنها تحب جوهرتها وتطمئن إليها، وهى الأرض وتنسبك الآخرة.

فرحمتك يا آدم، وزودتك هذه الحبة لأنها من الجنة، لتكون داعية لك إلى جوهرها، وهى الجنة كما أن جوهرة الزراب تدعوك إليها وهى الأرض، فخذ هذه يا آدم واغرسها، فغرسها آدم، فلما أنبت واستغلظت وأخرجت شطأها، فازدهرت واستوت على ساقها أعجب آدم نباتها.

وكانت إذا طلعت الشمس طلعت عليها، وإذا غربت غربت عنها، وأينعت وازدهرت وأورقت، واخضرت، وأثمرت، وأخرجت كل ورقة منها سمة منقوشة بالسورية لا إله إلا الله.

(١) التل: ما ارتفع من الأرض عما حوله، وهو دون الجبل. والجمع: تلال، وتلول.

فلما نظر إليها أعجب بها وقال: ليتني أعرف اسمها، فقليل له يا آدم هذه شجرة الزيتون، قال: يا رب، ولم سميتها شجرة الزيتون وهي من شجرة طوبى^(١)؟ قال: لأنني زودتك بها يوم تبت عليك، فالزاي زاي الزاد، والياء ياء اليوم، والتاء تاء التوبة.

قال: يا رب فما الواو التي فيه؟ قال: تلك علامة السمة التي وسمت بها أمها وهي طوبى فأخرجت هذه تلك السمة.

قال: وما سميتها؟ قال: سمة طوبى أنى أنا الله، وسمة هذه، هذا المنقوش على أوراقه وهو لا إله إلا الله، قال فما هذه النور في عقبيها؟ قال: ذلك علامة النون الذي وضعت فيها، فإن فيها نوراً يضي منها، وهو الذى قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضَى﴾* ولو لم تمسه نار^(٢).

رجعنا إلى ما كنا فيه، فشبه دهن شجرة القلب، وهى المعرفة بدهن شجرة الزيتون التى هى لا شرقية ولا غربية وهى التى غرسها آدم يومئذ.

يقول: فكما أن الزيتون إذا كانت بتلك الحال يكون أجود لثمرها، وأحسن كذلك يكون ثمر شجرة المعرفة أحسن وأجود إذا كانت لا شرقية ولا غربية.

(١) تحدث المفسرون رحمهم الله كثيراً عن شجرة طوبى فى الجنة، وطوبى شجرة فى الجنة، فى كل دار منها غصن منها، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤ - وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال: طوبى لمن رآنى، وآمن بى، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى، قال له رجل، وما طوبى؟ قال، شجرة فى الجنة مسيرتها مائة عام لياب أهل الجنة، تخرج من أكمامها.

(٢) سورة النور / الآية ٣٥.

فشمس الزيتون^(١) شمسنا هذا، وشمس شجرة المعرفة نظر الله الجميل إليها كل يوم بكرة وأصيلاً، وليس فيها بينه وبينها شئ يمنعه عن النظر إليها، وذلك أنه إذا كان بين نظره وبين الشجرة هواء أو شئ. لم يقع النظر على الشجرة، كما أنه إذا كان بين الشجرة وبين الشمس حائط أو ستر، لم يقع عليها الشمس ونفيت تحت ظل الحائط، فسقمت وذلت وتناثرت أوراقها، واصرفت وتغيرت عن حالها وما أخرجت من الثمار أخرجت نكدًا لا مذاقة لها، وخوفت عليها، ولذلك قيل الزيتون لا يستقر في بطن المنافق حتى يقى، ولا يطبق أكله إلا مؤمن طيب، لأنها من طوبى، وطوبى من الجنة، ولا يستقر ثمر الجنة في بطن المنافق.

وأما تفسير شجرة طوبى التى الزيتون منها، وتفسير سمتها والبركة التى فيها، فإن الله تعالى لما أراد أن يغرس شجرة طوبى خلق جوهرة، ثم شقها فاستخرج منها حبة، ثم شقها فحشاها بالبركة والبر والبهاء، وطواها فى لباس الرحمة، ووسمها بسمة ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا﴾^(١)، ثم هياها فى متوسط الجنان ومدانها ومحالها، فنشر فيها المسك والورس فأخذها بيده يوم الأحد

(١) ينبغى توضيح المقصود بقوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال بعض المفسرين: تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فإذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت. وهى ليس بشرقية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، ولا غربية، لا تصيبها الشمس إذا غربت ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت.

وقال أبى بن كعب: هى وسط الشجر، لا تصيبها الشمس شرقاً وغرباً.

وعن سعيد بن جبير فى قوله تعالى ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء﴾ قال: هو أجود الزيت، قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق فإذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشى فتلك لا تعد شرقية ولا غربية.

(١) سورة طه / الآية ١٤ - والآية الكريمة ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾.

فغرسها فيها، فبيست من ساعتها وأخرجت شطنها، وأورقت واستوت على ساقها واخضرت وازدهرت، واينعت ما به غصن عدد درجات الجنة، فى كل درجة منها غصن.

أصلها من ياقوته حمراء، وأغصانها من جوهرة صفراء، وأوراقها من زمرد خضراء، وثمارها على صفاء اللؤلؤ وبياضه أطيب من المسك، وأحلى من العسل، تؤتى أكلها كل ساعة ما شاء الله حلياً وحلاً وثماراً وجوارى وغلمان منقوشة على كل ورقة منها كلام بالعربية ﴿إنى أنا الله لا إله إلا إنا﴾ ﴿رحمتى وسعت كل شىء﴾^(١) كتبها الذين يؤمنون ويصدقون محمداً خاتم الأنبياء.

فلما نظر الجليل إليها رضى بها، وباهى بها جميع الأشجار والثمار وقال: رحمتى عليك ونظرى إليك أنى أنا الذى خلقتك وأن الذى ربتك، إنى أنا الذى طوبتك فى لباس الرحمة، إنى أنا الذى وسمتك سمى التى عليك، إنى أنا الذى باركت عليك، وحشوتك بالبر والبهاء والبركة، إنى أنا الذى غرستك بيدى فأنت غريسة يدى ومختارة خلقي، من بين الأشجار قد اشتقت لك اسماً من أسماء من صنعى بك وبما حشوت فيك، فأنت طوبى طوبى.

فالطاء طاء الطوبى حيث طوبتك فى الرحمة، والواو واو السمة حيث وسمتك بسمتى، والباء باء البر والبركة والبهاء الذى حشوتك بها، والياء ياء الندى الذى

(١) هذا جزء من آية كريمة من سورة الأعراف، وذلك فى قوله تعالى ﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فساكنها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ الآية ١٥٦ .

بيدى غرستك^(١).

فكل حرف من اسمك دليل على صنعى، وعلى ما حشوتك به من نظرى إليك، وطوبى لك، فيا طوبى لمن نالك، ويا طوبى لمن وصل إليك، واستظل بك، أطف بك على خلقى الأعلى من تقربى على إقرار توحيدى إني أنا الله لا إله إلا أنا. وقد قيل إن الأشجار ثلاث، شجرة الزيتون فى الأرض، وشجرة طوبى فى الجنة، وشجرة المعرفة فى قلوب المؤمنين، وكل حرف من هذه الأسماء يدل على نفسها، وصنع الله لها، فشجرة الزيتون اسمها الزيتون وهى كما ذكرنا، وشجرة طوبى اسمها طوبى، كما ذكرنا، وشجرة المعرفة اسمها الطيبة كما قال الله تعالى ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء﴾^(٢).

فالتى فى الجنة طوبى والتى فى قلوب العباد طيبة، فتلك أربعة أحرف وهذه أربعة أحرف، إلا أن فيها واو زائدة، وفى هذه هاء زائدة، وهناك الباء قبل الياء، وها هنا الباء قبل الياء، وهذا تقدير وتدبير من العزيز العليم، فهمه من فهمه وجهله من جهله، وسنذكر منه ما يستدل به على معناه أولى العقل من الناس، أما الطاء فطاء الطوع، وأما الباء فباء البيعة، وأما الهاء فهاء هو.

فإذا جمعت بين حروفها دل على أن الخلق بها أطاعوا ربهم، ويد الله

(١) ينتهج الشيخ رحمه الله منهجاً فريداً فى التحليل الهجائى للأسماء، وربط ذلك بالمعاني والدلالات المستكنة فيها، مما جعله يخلص إلى حقائق مهمة عن تلك الأسماء، وهذا ما فعله فى تحليله لأسماء إبليس وآدم والعقل والقلب وفرعون وإبراهيم والزيتونة وطوبى. وتحليله لكلمة التوحيد لا إله إلا الله. ويتخذ رحمه الله من تفسير كل حرف ما يربط بدلالة الكلمة ذاتها فلا يكاد يمر على حرف حتى يستخرج ما فيه من أسرار ومكنونات وعلامات ودلائل تتصل بطبيعة هذا الاسم.

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٢٤ .

بايعوا بها: نقول لها أطاعوه وبها بايعوه.

وذلك أن الله لما أراد أن يأخذ عليهم الميثاق، ويشهدهم على أنفسهم، وبايعهم على أنهم لا يطيقون أن يبايعوا يده، فأبدل الله تعالى مكان يده حجرة أخرجها من الجنة فبايعوه بها فسمها طيبة بذلك، ومن ذلك قيل الحجر يمين الله في الأرض .

تفسير قوله تعالى ﴿آلَم﴾^(١) :

قال: قد تكلم الناس فيها حتى أكثروا، وقد ذكرنا بعض ذلك في صدر كتابنا هذا، ولكن في الجملة، نذكر منه ما تحتمله قلوب الخلق، ويكون لأبائهم مساعاً^(٢). إن حشر الألف الوجدانية والربوبية والفردية والألوهية وأسماؤه وصفاته الذاتية، فجميع ما يخرج من هذا النوع إنما يخرج من الألف وهو الله.

وحشو اللام اللطف والإحسان والبر والعفو والرحمة والصفح وما يشبههما يخرج من اللام وهو اللطيف، وحشو الميم الملك والقدر والجبروت والسلطان والقهر والعذاب وما يشبهها يخرج من الميم، وهو الملك، وفي بيان ما قلنا: شفاء لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعمى لمن جعل الله صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء.

تفسير قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾^(٣) :

وقيل له: ما معنى قوله اهدنا الصراط المستقيم، وهو الإسلام، وقد هدى وأعطى، أليس محال أن يشهدوا: الإسلام وهم مسلمون؟

(١) سورة البقرة / الآية ١ .

(٢) من الناحية اللغوية الصواب أن يقال: ويكون لأبائهم مساع .

(٣) سورة الفاتحة / الآية ٦ .

قال: ليس هذا على ما ذهب إليه الناس، إن الهدى هدى الإسلام، ولكن هذا من هداية الطريق، لأن القوم خافوا على أنفسهم من الأهواء المضلة التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم (أن بني إسرائيل افترقت اثنتي عشرة فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة^(١)).

فنظر أولوا العقول من الناس فقالوا: إن هذه الفرق التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم قد ظهرت، وكل تدعى أنها هي الجماعة، وكل على ما هو عليه فرح مستبشر كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾^(٢)، قال معجبون، فكل فرقة قد سَمَت صاحبها باسم من أسماء الهواء^(٣) المضلة المردية المنسوبة إلى النار، عناء أولوا العقول في ذلك، وخافوا على أنفسهم أنهم في بعض منها، وأنهم لا يعلمون فحاروا إلى الله متضرعين خائفين، فقالوا: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾^(٤) على عبادتك، اهدنا.

يقول: عرفنا يا رب طريقك المرضي، ومنهاجك الواضح من بين هذه الطرق والسبل، فإنهم يدعوننا إليها، ونحن لا نعرف أي طريقك أم لا.

الصراط: يقول الطريق المستقيم الذي ترضاه لنفسك وميزته بحكمتك من بينها، صراط الذين أنعمت عليهم، وهم أهل الصلاح والأولياء، غير المغضوب

(١) ورد في الحديث بروايات عديدة كلها صحيحة، فقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن معاوية بن أبي سفيان، ورواه أبو داود كذلك بإسناد صحيح.

(٢) سورة الروم / الآية ٣٢.

(٣) الهواء: الفارغة.

(٤) سورة الفاتحة / الآية ٥.

عليهم: غير طريق اليهود، ولا الضالين: ولا طريق النصارى، وهى هو الاثنين والسبعين فإنها قد فشلت فى هذه الأمة.

فلو أن واحداً منا أخذ بواحدة منها، أخذ شعبة من تلك الأهواء النصرانية، فقلوه: اهدنا^(١)، نقول: عرفنا، ليس على ما ذهب إليه الناس من الهدى، فإن الله قد هداهم، ومحال أن يسأل الشئ الذى قد أعطى، وذلك فى اللغة جارى يقال: أتهدى منزل فلان، أى أتعرف.

ومثال ذلك فى الدنيا، لو أن رجلاً حباه الملك بدرة^(٢) من دينار من غير سؤال ولا تعرض، فنسى الرجل البدره، وتقدم إليه يسأله بدرة أخرى من دينار، فما ظنك به؟

أليس يُهان ويطرد، ويقال: أليس قد أعطيتك؟، أمسك ما تسأل اليوم. فأنت كفور جهول، فيحرم العطية، ويغلق دونه باب الملك، فلو كان هذا لا يستكثر من ملوك الدنيا، ويقبح عندهم، إذن هو أقبح عند الجميل الجليل.

(١) تفسير الشيخ رحمه الله للآية الكريمة لا يتعد عما ذهب إليه المفسرون لقوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. فالذين أنعمت عليهم جماعة للأنبياء والمؤمنين والمسلمين والشهداء والصالحين كما قال تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾.

وأما المغضوب عليهم فهم اليهود، الذين قال الله تعالى عنهم ﴿من لعنه الله و غضب عليه﴾ والضالون هم النصارى، الذين قال الله عن بعضهم ﴿قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً﴾. وقد روى ابن مردويه حديثاً عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم قال: اليهود، قلت: الضالين، قال: النصارى.

(٢) البدره: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم فى العطايا، ويختلف باختلاف العهود. والجمع بدر.

ومثال الكلام، الأول أن القوم خافوا على أنفسهم اشتباه الطريق عليهم، فاستعرفوا الله الطريق المرضى من بينها كرجل دعاه الملك إليه على طريق يرضاه الملك أن يأتيه إليه في ذلك الطريق، ومن منزل الرجل إلى الملك مسافات وجبانات، وطرق مختلفة على عدد الاثنين وسبعين فرقة، على كل طريق منها دال يدلّه على الطريق، ويزعم أن الطريق المستقيم الذى يرضاه الملك، ويجب أن يؤتى إليه فيه هذا، ويجتهد فى ذلك ويحتج ويبين، ويريه العلام والشواهد، فينتبه الرجل، فيقول للملك: من بين هذه الطريق، طريق واحد، وأن كل واحد من هؤلاء يزعم أن الطريق الذى هو عليه، المرضى والمختار، وكل يدل بالحجج والشواهد، فيتفكر الرجل فى ذلك، ويقول: لا أرى الحيلة على وجود تحرى مسرة^(١) الملك فى الإتيان إليه على سبيل يرضاه الملك ويختاره إلا بكتاب من عندى إليه استهديه محبوبه ومختاره من هذه الطرق واستعرفه ليعرفنى، ويهدينى إليه، فإنى قد تهت، ولا أدرى فى أيها أسلك، فكتب إليه واستعرفه.

فقال: عرفنى أيها الملك طريقك المستقيم لأسلك فيه إليك فقد اشتبه على الطريق، فيقال له: أى صراط تريد؟ فيقول: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾^(٢)، أى حننت عليهم بأن عرفتهم طريق الرشd من طريق الغى بعدما تاهوا فيه كما تهنأ، فيقال لهم: تعنون طريق اليهود ابتلاء واختباراً؟

فيقولون: غير طريق من غضبت عليهم وهم اليهود. فيقال: فطريق النصارى؟ فيقولون: ولا طريق الضالين من النصارى، وهم أصحاب الأهواء،

(١) مسرة من سره سروراً، ومسرة: الفرح.

(٢) سورة الفاتحة / الآية ٧.

فاستجاب لهم ربهم، فقال: ﴿ولا يزالون إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾^(١)، قالوا: فأى سبيل سبيلك، فقال: قل يا محمد ﴿هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي﴾^(٢).

فقال: أى سبيل هذه؟ فقال: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾^(٣).

قالوا: على أى سبيل؟ قال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾^(٤).

قالوا: وما ذلك؟ قال: ﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾^(٥).

قالوا: أى صراط هذا؟ قال: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾^(٦).

وكذلك قال لداود عليه السلام: يا داود، لا تجعل بينى وبينك عالماً مفتوناً بالأهواء فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع طريق عبادى، المرديدون إن أدنى ما أصنع بهم أن أنزع حلاوة الإيمان من صدورهم.

(١) آيتان فى سورة هود / الآيتان ١١٨-١١٩ وقد سقطت منها كلمة مختلفين، ونص الآيتين الكريميتين هو ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾

(٢) سورة يوسف / الآية ١٠٨ .

(٣) سورة الأنعام / الآية ٩٠ .

(٤) سورة الأعراف / الآية ٣ .

(٥) سورة الأنعام / الآية ١٥ .

(٦) سورة المائدة / الآية ١٦ .

فبين الله سبيل مرضاته من بين تلك الأهواء والسبل لعباده المريدین والمتحرین لمرضاته طريق الرشـد فى أى من القرآن ويهديهم إلى الاقتداء بالأنمة الصالحين والتمسك بأخلاقهم وسبلهم ما وافق كتاب ربهم فإن فى موافقة الكتاب الحلول^(١) على بساط مرضاه الله والتناول من لائمه الله، والشراب من كأس محبته.

تفسير لباسه :

باب تفسير لباسه، فالمعرفة ملك قد ملكه الله، وأحله موضعاً من أشرف النفس وأطرفه وأعلاه، وله لباس من الجمال، ولباس من الجلال، ولباس من السلطان، ولباس من العظمة، ولباس من الهيبة، ولباس من الجود، ولباس من المجد، ولباس من الكرم، ولباس من الرحمة، ولباس من العطف، ولباس من الرأفة، ولباس من الشفقة، ولباس من الجبروت، ولباس من الملكوت، وعليه تاح من الألوهية، قد سطع نوره إلى ذى العرش المجيد.

وله شأن أعود من هذا، ينبه أفهام العامة فى عجائبه قد كتمناها خوفاً من ولوج الوسوس على أعين قلوبهم، والافتتان بها، لكنه علم عجيب جليل .

تفسير حجبه :

باب تفسير حجبه: وبين يديه حجب من العدل، والحق، والعظمة، والهيبة، والسلطان، وحجب من النور، وحجب من الرحمة، وحجب من الكبرياء .

^(١) حَلَّ بالمكان: نزل به - وحلولاً : نزولاً . والجمع: حلول .

صفة العقل :

باب صفة العقل، وأما صفة العقل، فإن الله تعالى خلق العقل من نور الهيبة، وهو ثلاثة أحرف في الكتاب، عين وقاف ولام.

فللعين خمسة معاني، من العزة والعظمة والعلو والعلم والعطاء، فهذا تفسير معنى العين، ولكل حرف منه جوهر، فوضع من كل جوهر فيه.

فقولك العين فيه العظمة والعزة والعلو والعلم والعطاء، وأما القاف فلها خمسة معان، فالقاف من القرية والقول والقرآن والقوام والقدرة، فإذا قلت عقي، دخل فيه عين وقاف، ومعاني العين، ومعاني القاف، وأما اللام فمن اللطف، واللطف من الرحمة، والرحمة من العطف، والعطف من الشفقة، والشفقة من الشوق، والشوق من الحب.

والحب حرفان، حاء وباء، فالحياة والحياة والحلم والحكمة، فإذا قلت حاء ذلك هذا الحاء على أن فيه الحياة، والحياة والحكمة.

وأما الباء فمن البر والبهاء، فحاء الحياة أحيا جسده، وبهاء الحب أحيا قلبه حتى عرفه، وباء البر به بنعم الدنيا، وباء البهاء باهى به عند الملائكة، فالعقل خلق فيه ما وصفنا، يخرج من حروف، خلقت هذه المعاني، ثم هو في صورته أحسن الخلق وأزينه، ثم في لباسه أحسن الألبسة وأشرفها.

وحشاه بأنواه الوجدانية والفردية والكبرياء، وكساه بكساء من نور الكمال، نور البهاء، ونور الجلال، ونور السناء، ونور الحسن، ونور العظمة، ونور الهيبة.

فلما فرغ من خلقه قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقعد، فقع، فقال: وعزّتي، ما خلقت خلقاً أحسن منك، ولا أجمل منك، ولا

أشرف منك، ولا أنبل منك.

خلقتك من نور، وحشوتك بالنور، وكسوتك بالنور، وقربتك بالنور، وأمدك بالنور، وأسكنتك معدن النور، فأنا النور، ومعرفتي نور، وكلامي نور، وأنت من نور النور، فأنت نور على نور، أهدي نوري من أشياء من عبادي.

ثم قال له: من أنا؟ قال: أنت الله الذي لا إله إلا أنت قال: فقال الرب: بك أطاع، وبك أشكر، وبك أعطى، ولك الثواب، وعليك الحساب^(١). قال: فهذه صفة العقل .

باب صفة جنوده :

باب: وأما صفة جنوده، وأسمائهم: فالعلم، والحلم، واليقين، والحق، والبصر، والفتنة، والفهم، والوقار، والسكينة، والحياء، والبصر، والهدى، والرشد، والحفظ، والعفاف، والرزانة، والتقوى، والفكرة، والتذكر، والعفو، والبر، والرحمة، والرفقة، والرافة، واللفظ، والعطف، واللين، والجود، والمجد، والعطى، والحمد، والذكر، والثناء، والشكر، والهيبة، والسلطان، والكبر، والعظمة، والفخر، والعزة، والتواضع، والتضرع، والخشوع، والخضوع، والصدق، والصلة، والإخلاص،

(١) الأحاديث النبوية التي وردت بشأن العقل وردت بروايات عديدة، وهي وإن كانت لم ترد في كتب الصحاح المعروفة، لكنها يستدل بها على أن الله تعالى خلق العقل بعد أن خلق تعالى القلم ثم خلق النون وهي الدواء، ومن ذلك ما رواه ابن عساكر عن أبي عبد الله مولى بنى أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿إن أول شئ خلقه الله القلم .. إلى أن قال صلى الله عليه وسلم: ثم خلق العقل وقال: وعزتي لأكملنك فيمن أحببت، ولأنقصنك من أبغضت .

والنية، والعزم، والحزم، والوفاء، والعدل، والسلام، والسداد، والإحسان،
والشوق، والحكمة، والعبادة.

والقناعة، والرضا، والحد، والتدبير، والرأي، والتوكل، والتفويض،
والتسليم، والظفر، والنصر، والنصح، والصفح، والغفران، والستر، والرغبة،
والرهبة، والرجاء، والخوف، والعصمة، والنوال، والصدارة، والصمت، والحب،
والأمر، والنهي، والصلابة، والخلق، والسمت^(١)، والذهن، والإلهام، والمراقبة،
والغناء^(٢)، والتوبة، والإنابة، والمزح، والسرور، والعبرة، والعفة، والندامة،
والذكاء، والكياسة، والزهد، فهذه مائة أمر لجنود العقل .

باب أمور جند العقل:

باب أمور الجند، وعماله، وأمرآته. فأما العلم والحلم، فهما وزير العقل واليقين
قائم الجيش، والحق صاحب المظالم، والبصر الفتاح، والفطنة الطليعة، والفهم صاحب
الثبات، والوقار والسكينة قائدان، والحياء صاحب السر، والصبر صاحب الاستدراج،
والهدى والرشد الدليلان، والحفظ والصيانة صاحب الكنوز والعفاف.

والرزانة والتقى والورع أصحاب الخزان، والفكر، والتذكر صاحب المكر،
والعفو والبر صاحب الملح، والرحمة والرقّة واللفظ والمراقبة واللين والصدارة أعوان
القاضي، والجودو والمجد والعطاء والكرم أصحاب الأرزاق، والحمد والذكر والثناء
والشكر أصحاب المدد والهيبة والسلطان، والكبر والعظمة والفخر والعز الأبطال
المحاربون، والتواضع والخشوع والخضوع الرجالة، والصدق القاضي والصحة

(١) السمة: الطريق الواضح، ويقال سميت فلان أى هيئته .

(٢) الغناء: النفع والكفاية .

والإخلاص والنية، والعزم والحزم أصحاب المبالغة، والوفاء والأمين، والعدل
الصبحان، والسلامة والسداد أصحاب الأعلام، والإحسان صاحب الرايات.
والشوق صاحب اللواء، والحكمة الحاكم، والعبادة والخدمة والقناعة والرضا
قيم الأمور، والحذر المدبر، والرأى صاحب المشورة، والتوكل صاحب الحصن،
والظفر والنصر الرماة، والنصح والصفح الرسل، والرغبة والرغبة، والرجاء
والخوف للشاكرين، والمداراة والصمت أصحاب الرصد، والحب البندار^(١).
والأمر والنهي، والعهد والميثاق، والصلابة الجلال، والخلق والسمت
الوكيلان، والحدة صاحب الشرطة، والذهن أمير الجيش والإلهام رسول الملك
الأعلى، والمراقبة صاحب الأخبار، والغنى الطبال، والفرح والسرور والانبساط
اللعب، والعين الجاسوس، والعظة المنادى، والذكاء والكياسة الغاشيات، والورع
والزهد المحتسبان، والتوبة المقدم، والندامة الساقاة؛ فهذه صفة الجنود وأمورهم
وأمراتهم وعماهم، وفراسهم ورجالتهم.

باب: صفة إبليس وجنوده:

وصفة الهوى، وصفة جنوده، فأما صفة اللعين وصفة جنوده، فإنهم اثني
عشر وزيراً تحت يدي كل واحد منهم مائة ألف قائد، ثم تحت كل واحد منهم مائة
ألف، حتى أن على رجل واحد من بني آدم تبعث أكثر من ربيعة ومضر.
وكل قائد منهم على أمر له من أخلاق السوء ما به، وكما أن ملك المعرفة
العقل، كذلك الهوى ملكه، فأما أسماء وزرائه الإثني عشر، فأولهم كرام بن كريم، وهو

(١) البندار: مرسى السفن في الميناء.

صاحب مكارم الأخلاق في الجر والنهي عن مساوئها، والأمر بالفضل والأخذ به.
والثاني هامة بن إبليس، وهو صاحب كبائر الذنوب، والثالث شيطان بن
سوقان، وهو صاحب الأسواق بأمر بالتطفيف، والرابع الزويغ بن دامغ، وهو
صاحب السعائيات والنميمة، والخامس أم روبن، وهي صاحب الحروب التي تهيج
بين الناس، وتأمروهم بالقتال.

والسادس شيطط بن لويط، وهو الذي يأمر بالقرطب^(١) والقيادة والفجور،
والسابع شوقت بن وهب وهو صاحب التخليط بين الناس، وترك النصيحة والاستقامة.
والحادى عشرة قابط بن قوطل، وهو الذي يأمر بكل شر والشتيم والمنافرة؛
والثاني عشر عزارين حسوب، وهو صاحب الملاهى والمجالس التي تشرب فيها
الخمور، ويعتكف فيها بالفجور، وله عرات^(٢) وصنّاع سوى ذلك ممن اتخذوا المعازف
والملاهى يفتنون بها الخلق، ويلهونهم بها.

وكان بدء جميع الملاهى منهم أسماء أصحاب الصنائع والعملة، وأصحاب المعازف
والملاهى، وهم أكرم الخلق على اللعن، وهم أبو سملقة وهو أول من اعتصر الغيث فحمر
وشرب وتغنى^(٣)، وهو أول من عرق، وذلك أنه أخذ بحفنة فتحلب ماء الكرم وشرب منه،
ثم وضعها تحت الكرم، وغطى رأسها بورقة، ثم عاد إليها بأيام فإذا هرين^(٤) ورغوة: سقاه

(١) القَرْطَب: وردت لهذه الكلمة عدة معانٍ قاموسية، فزاد بمعنى الصرع على القفا، وبمعنى صغار
الجن، وبمعنى الغضب، والعنوّ.

وربما كان معنى الغضب هو الأنسب للسياق.

(٢) من الغرى: وهو التجرد من الثياب.

(٣) وردت في الأصل "وتغفا"

(٤) الهرين: لم نستدل على معنى لها في قواميس اللغة.

أخاه شهاب منه فسكر، فعزف فسمى أخوه عزافاً، وسمى هفافاً، وكان اسمه قبل ذلك مسقص.

باب ومزة بن الحرث أول من اتخذ الربيط^(١) :

وذلك أنه أتى هفافاً يوماً فسقاه الهفاف من شرابه، فطار فوقه في جزيرة من جزائر البحر، فبقي فيها سنة يتفكر في شيء يأتي به يذكر به كما ذكر الهفاف بالعصير.

فإذا هو يوماً بطائر له صوت شجي حسن فسمع صوته فأعجب يارنه، فَنَحَتَ عوداً^(٢) وشدّ عليه خيوطاً من لحاء الشجر، حتى صيره على صفة العود فاتخذ عوداً، ثم اتخذ من بعد ذلك أوتاراً بعد اللحاء من أذناب الخيل ضربه.

باب: ولوقس بن لاقس، أول من اتخذ المزامير:

وذلك أنه مر يوماً بالهفاف ومرّه وهما يطربان فسمع صوتاً لم يسمع بمثله قط، فدنا فشرب شراباً لم يشرب مثله قط فطار حتى وقع إلى أرض بابل، فمكث سنة متفكراً لبدعة حتى سمع ليلة صوت ذبابة، فتناول قصبة^(٣) فنقبها؛ ثم نفخ فيها.

باب: وصهيب بن عازب، وهو الذي اتخذ المصباح:

وذلك أنه وقع عند الهفاف وأصحابه فوقه في جزيرة البحر، فظل فيها دهنراً ملتصقاً بدعة حتى هاجت يوماً ريح عند الصف فوقه الريح في ورق شجرة يابسة، فصتت فأعجبته فاتخذ صيحاً.

(١) الربيط: العود، وهو من ملاهي العجم، وفي حديث علي بن الحسين، لا قُذست أمة فيها الربيط.

(٢) الإرن، من أرن، أرنأ وإرانأ: نثيط ومرح فهو أرن.

(٣) القَصْبَةُ: كل أنبوبة في ساق الشجر تنتهي بعقدتين.

باب وأبو ليسم:

وهو الذى ابتدع الطبل، وذلك أن فطا^(١) يوماً ذيله على، باطيه هفاف، فجعل هفاف يضرب يده عليه، فصوت فجعل مكان الذيل جلدًا.

باب: أسماء أصحاب المنازل والحرف:

وشيطان يقال له القصقام بن القست وهو ساكن المزابيل تنضح البول على الشيا، وشيطان يقال له الدفوف بن القارب وهو على المطبخ يشغل النساء لتحرق الأجرة لتغضب الأزواج وعلى القدور بملحها، والرياض بن الدمدان، وهو على الأموال والكنوز، والراتب شو، وهو صاحب الحمّام، والضخّاك بن المقطب وهو على الرقاق^(٢) والمسلك^(٣)، والمربعات^(٤) يرشد السكارى إلى بيوتهم، والعصوف بن الجدة، على مجالس الفتان والعزف، وهما شيطانا العريضة، والجسور بن اللطف، وهو الذى يجمع بين الغلمان والنساء، والبحيث بن المقحم، وهو الذى على الأسواق، والدويف بن القلقل، وهو الذى على حوانيت الخمر.

باب: لما أراد الله أن يسكن الخلق الأرض:

خلق الجان من نار السموم^(٥)، وخلق زوجته منه، فغشيها فحملت إحدى

(١) فطا: فطا الشئ يفوه فطوًا: ضربه بيده وسدّخه.

(٢) الرقاب: الخبز المنبسط الرقيق. واحده، رُقَقَة.

(٣) المسلك: الطريق والمنفذ، والجموع: مسالك.

(٤) المربعات لعلها من المرتع، وهو الموضع الذى يقام فيه مخاز من الربيع، وإن كانت هذه الكلمة تجمع على مراتع.

(٥) السموم: وردت إشارة إلى هذه الكلمة فى قوله تعالى ﴿والجان خلقناه من قبل نار السموم﴾ الحجر: آية ٢٧. والسموم هى الريح الحارة الشديدة؛ نقرأ فى هذا قوله تعالى عن أهل النار ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. فى سموم وحميم﴾ الواقعة.

وثلاثين بيضة، فوضعت بيضة واحدة، ففقات عن قطربه، وهى أم القطارب، فلما طلعت رأسها قالت الجنة وهى زوجة الجان: يا قطربه سمعنا دعوت، قالت الجنة: احص ولدى، قالت قطربه: ما خلقت؛ فوضعت الجنة ثلاثين بيضة، فحفنها قطربة فتعلق منها عشر بيضات.

فكان فى البيضة الأولى، الأبالسة، منهم الحرث لبوزة عذو آدم ونسله، فسكنوا البحور، تعلق البيضة الثالثة عن الفيلادة، فسكنوا الحرب والفلوات، وتعلقت البيضة الرابعة فسكنوا الجبال والرمال، وتعلقت الخامسة عن الطهامن، فسكنوا الأدغال والأحجام.

وتعلقت السادسة عن الأراحيل، فسكنوا العيوان ومجامع الطرق، وتعلقت السابعة عن النهاوين فسكنوا الحمامات والمزابيل والكنف، وتعلقت الثامنة عن الهوام فسكنوا الهواء وغيره، وتعلقت التاسعة عن الأراى فسكنوا معارك الحروب والنوايس والفنون، وتعلقت العاشرة عن الدواجن فسكنوا الدار والقصور وخيام الأعراب.

وأما العشر الفوافى فإن قطربة حملتهن، وطارت فى الهواء حتى إذا كان بين مسقط عين الشمس ومطلع سهيل، فقسمت منهن حمساً ثم قال: غمروا وأكثروا ومضت، حتى إذا كان بين مطلع سهيل وبين مطلع قرن الشمس فقسمت منهن حمساً، وقالت هن مثل ذلك.

ثم مضت حتى إذا كانت بين مطلع قرن القمر ومطلع مدلت النعش فقسمت حمساً، وقالت هن مثل ذلك ثم مضت حتى إذا كانت بين مطلع نبات النعش ومسقط عين الشمس فقسمت حمساً ثم قالت مثل ذلك، ثم رجعت القطربة إلى الجنة فقالت: ملأت البر تعلق كل بيضة عن ألف قوام ذكر وأنثى

حدثنا بذلك كله، وقد ذكر إسناده عمر راوى هذا الحديث فأسقط به ناسخ أصل الذى نقلت منه.

قال: فهذا كله عدو آدم وذرية بيت اللعين وسراياهن وسوم أموره، ومدبر ومسلط حتى إنه ليعت ألف سرية على رجل واحد من ولد آدم فى المكر عليه.

إبليس ويحيى عليه السلام:

صفة إبليس اللعين، حدثنا أبو مقاتل عن صالح بن سعيد، عن أبى سهل عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "إن إبليس عدو الله كان يأتى الأنبياء ويتحدث إليهم من لدن نوح إلى عيسى بن مريم، وما بين ذلك من الأنبياء، غير أنه لم يكن لأحد أكثر زيادة ولا أشد استئناساً منه إلى يحيى بن زكريا عليه السلام، وأنه دخل عليه ذات يوم فلما أراد الانصراف من عنده قال له يحيى: يا أبا مرة واسمه الحرث وكنيته أبو مرة، وإنما سماه الله إبليس لأنه أبلس من الخير كله يوم آدم فقال له: يا أبا مرة إني سائلك حاجة وأحب أن لا تردنى عنها.

فقال له: ولك ذلك يا نبي الله فسل، فقال له يحيى بن زكريا: إني أحب أن تحتنى فى صورتك وخلقت وتعرض على مصائدك والتي بها تهتك الناس^(١).

قال إبليس: سألتنى أمراً عظيماً ضقت به ذرعاً، وتفاقم خطبه عندي، ولكنك أعز علىّ، وآمن من أن أردك فى مسألة ولا أهلك بحاجة، ولكنى أحب أن تخلو برويتى فلا يكون معك أحد غيرك، فتواعدا الغد عند ارتفاع النهار. صدر من

(١) من الهلاك، فيقال هلك الناس أى استوجبوا النار، والخلود فيها بسوء أعمالهم، ومنه فى الحديث (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم).

عنك على ذلك، فلما كان من الغد في تلك الساعة تمثل بين يديه قائماً، فنظر إلى أمر الله عظيم، وإذا هو ممسوخ منكوس مقبوح هائل، كرم جسده على أمثال أجساد الخنازير ووجهه على وجه القرده، وشق عينيه طولاً وشق فاه طولاً حيال رأسه وأسنانه كل عظم واحد، لا دقن له أصلاً ولا لحية وشعر رأسه معلل مقلوب المنبت نحو السماء، وله أربعة أيدي، يدان في منكبه، ويدان في جبينه وأصابعه فما يليه من القدم خلفه وعواقبيه أمامه، وأصابع يديه ستة، وجسده أضلت، ومتخذى أنفه نحو السماء له خرطوم كخرطوم الطير، ووجهه قل القفا، أعمش العينين، أعرج، معوج، له جناح، وإذا عليه قميص مقلص قد تمنطق، فوقه بعل الجوس، وإذا أكواز صغار قد علقه من منطقة، وحوالي قميصه جاعل ستة الشرب في ألوان شتى من بياض وسواد وحُمْرة وصفرة وخضرة، ويده جرس ضخيم وعلى رأسه بيضة في قلبها حديدة مستطيلة معففة الطرف.

فقال له يحيى: أخبرنى يا أبا مرة، عما أسألك مما أرى، قال: يابنى الله ما دخلت عليك على هذه الحالة، إلا وأنا أحب أن أخبرك بكل شئ تسألنى عنه ثم لا أعمى عليك.

فقال: حدثنى يا أبا مرة عن انطاقلك هذا فوق القميص ما هو؟ قال: يابنى الله تشبه بالجوس، أنا وضعت الجوسية فدنت بها.

قال: فأخبرنى ما هذه الأكواز الصغار التى هى معلقة من منطقتك مقدمة؟ ، قال: يابنى الله، فيها شهوات وحبائل مصائد، فأول ما أصيد به المؤمن من قبل

النساء^(١)، فإن هو اعتصم بطاعة الله أقبلت إليه من قبل جمع المال من الحرام؛ طمعاً فيه وحرصاً عليه؛ فإن هو اعتصم بطاعة الله واجتنبى بالزهادة، أقبلت إليه من جهة الشراب هذا المسكر حتى أكرر عليه هذه الشهوات كلها، ولا بد أن يواقع بعضها، ولو كان من أورع الناس.

قال: فما هذه الحبال إلى طرف؟ قال: يابى الله، هذه ألوان أصباغ النساء وزينتهن، ولا تزال إحداهن تلون ثيابها حتى يأتى على ما يليق بها فهناك أفترز^(٢) الرجال إلى ما عليها من الزينة.

قال: فما هذا الجرس بيدك؟ قال: يابى الله هذا معدن الطرب، وجماعة أصوات المعازف من بين بربط وطنبور ومزامير وطبول ودفوف ونوح وغناوات القوم، يجتمعون على محفل شر، وعندهم بعض ما ذكرت من هذه المعانى فلا يكا دون يتمهمهون^(٣) فى مجلس ويستلذون ويطربون.

فاذا رأيت ذلك منهم حركت هذا الجرس فيختلط ذلك الصوت بمعازفهم، فهناك يزيد استلذاهم وتطريههم، فمنهم من إذا سمع هذا يفرقع أصابعه، ومنهم من يهز رأسه، ومنهم من يصفق بيديه، فما يزال هذا دأبهم حتى أبرمهم، قال: فما هذه البيضة على رأسك؟ قال: يا نبى الله، احترز منى ومن مصائدى التى وصفت لك الأنبياء والصالحون والنسك وأهل الورع، كما أحرز رأسى هذه البيضة من كل نكبة.

(١) نقرأ فى التحذير من النساء أحاديث عديدة منها قوله ﷺ (اتقوا لدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء) رواه الترمذى عن أبى سعيد.

(٢) أى استفزهم واستخف بهم، وفى هذا نقرأ قوله تعالى ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ الإسراء: آية ٦٤.

(٣) الهمهمة: ترديد الصوت فى الصدر . والهمهمة: الكلام الخفى .

قال: وما النكبة؟ قال: اللعن.

قال: فما هذه الحديدية المستطيلة التي في قلبها؟ قال: يا نبي الله هي التي اقلب بها قلوب الصالحين، قال: بقيت حاجة، قال: قال، قال: ما بال خلقك وصورتك على ما أرى من القبح والتقليب والإنكار؟

قال: يا نبي الله هذا نسب أبيك آدم، إني كنت من الملائكة المكرمين فإنني لم أرفع رأسي من سجدة واحدة أربع مائة ألف سنة فعصيت ربي في عدم سجودي لأدم أبيك، فغضب الله علي ولعنني، فحولت من صورة الملائكة إلى صورة الشياطين.

ولم يكن في الملائكة أحسن صورة مني، فصرت ممسوخاً منكوساً مقبوحاً مقلوباً هائلاً كريهاً كما ترى.

قال: فهل أريت صورتك هذه أحداً قط ومصائبك بهذه الصورة؟ قال: لا وعزة ربي، إن هذا الشيء ما نظر إليه آدمي قط، ولقد أكرمتك بهذه دون الناس كلها، قال: فنعلم إكرامك إياي بمسألتك مسألتين، إحداها عامة والأخرى خاصته، قال: فذلك يا نبي الله فسل.

قال: حدثني أي الأشياء أرجى عندك وأدعمه لظهورك، وأسله لكاتبك، وأقره لعينك، وأشدّه لوقتك، وأفرحه لقلبك .

قال: يا نبي الله: إني أخاف أن تخبر أحداً فيحفظون ذلك، فيعتصمون به، فيضيع كيدي.

قال: إن الله قد أنزل في الكتب شأنك وكيدك، وبينك لأنبيائه وأوليائه،

فاحتزوا ما احتزوا، وأما الغاوون فانت أولى بهم، قد تلعب بهم كالصوالة^(١) بالكرة، فليس قولك عندهم أوعى وأعز من قول الله.

قال: يا نبي الله، إن أرجا الأشياء عندي وأدعمه لظهرى وأقره لعيني النساء، فإنها حباتي ومصاندي وسهمي الذي به لا أحظى بياهن، ولو لم يكن ما أطق إضلال أدنى آدمي، قرّة عيني بهن، أظفر بمقراتي، وبهن أوقع في المهلك باجتهادهن، إذا اعتممت لبست على النساك والعباد والعلماء غلبوني بعد ما أرسلت عليهم الجيوش فانهزموا.

وعندما ركبت وقهرت ذكرت النساء فطابت نفسي، وسكن غضبي، واطمنن كظمي، وانتسف غيظي، وملت كآبتي، وقرت عيني، واشتد أزري.

ولولاهن من نسل آدم لسجدتهن فهن سداي، وعلى عتقي سكتانهن وعلى قوائمهن ما اشتهد امرأة من حيالتي تلى حاجة إلا كنت أسعى برأسى دون رجلى في إسعافها بحاجتها، لأنهن رجائي وظهرى وعصمتى ومسندي وثقتى وعونى.

قال: وما نفعك ومزجك في ضلالة الآدمي، وبأى شئ سلطت عليه؟ قال: خلق الله الأفراح والأحزان، والحلال والحرام، وخيرنى فيهما يوم آدم، فاخترت الشهوات والأفراح، واخترت الحرام والفحش والمناكير. صارت تلك تهمنى وهواى.

وخير آدم فاختر الأحزان والعبادة والحلال، فصار ذلك له تهمة ومنية، فذاك منيته وقمته، وهذا هواى ونهمتى وشهوئى، وذاك شيه وماله ومتاعه، وهذا

(١) الصوالة: كلمة فارسية معرفة والصولجان عصا يعطف طرفها يضرب بها الكرة على الدواب .

يشيتى وماله ومتاعى وبضاعتى، وشئ المرء كنفسه، لأن فيه نهمة^(١).

وشهوته، ونهمة المرء وشهوته حيوته فإذا سلب الحياة هلك المرء، فكلم من خلق الله ترى من سلب منه نهمة وشهوته وهمته فمات وهلك، فكذلك هذا. إنما اخترت ما اخترت فصار ذلك شهوتى وهواى وحياتى، متى ما سلبت هلكت، ومهما ظفرت به فرحت وحييت، فإذا رأيت شهوتى وهواى وحياتى عند غيرى قد سلبها منى كل الجهد حتى أظفر بها ليكون بها قوامى.

فهذا الآدمى سلب حياتى، وهى الشهوة والهوى، فجعلها فى كنه وحرزه وقد تهيأ واستعد يقاتلنى ويحاربنى، فهل بد من المحاربة ليصل الحق إلى حقه، ويقهر الظالم، فهذه حالتى وشأنى وسبب فرحى إذا غلبته.

قال له: وما ظلمه حيث يقول يقهر الظالم؟ قال: ظلمه إذا سلب هواى فجعله فى كنه، فلولاً ظلمه وإلا ما كنت أطمع فى حربته وحلاله كما طمع فى حرامى وهواى.

قال له: أليس محال أن يقول أنا أريد استزداد هواى منه وتفرح إن هو استعمل، وتحزن إن لم يستعمل هواك فى شؤونه؟.

قال: إذا استعمل هواى لست أحزن، ولكنى أفرح لأنه قد أعطانى نهمتى، وإنما أحزن حين لا يستعمله، ولست أطلب نهمتى لأخذه منى، فإنى قد منت أن لا يرد، لأنه قد جُبِلَ عليه، ولكنى أريد استعماله فإذا استعمله أعطانى منيتى واختيارى وحياتى، فهو نفسى فإذا استعمل منيتى أحيانى وفرحنى لأنه استعمله

(١) النُهْمَة: بلوغ الهمة فى الشئ والنهمة: الحاجة، وبلوغ الشهوة فى الشئ، وفى الحديث ﴿إذا قضى أحدكم نهمة من سفره فليعجل إلى أهله﴾.

على جهته، وإذا لم يستعمله على جهته فهو فى كنهه كالمسجون.

فإذا كان هو فى كنهه مسجوناً مقيداً وهو حياتى، كنت كائى المسجون المقيد، وصرت حزيناَ لأنه أبدلنى بمكان حياتى الموت فلا بد أن احتال بكل حيلة وآته بكل خدعة، وأحى الآلة والأدوات وأخرج الملاهى وأدواته وأضربها وأحركها والوحها لعله يرى ذلك، فيطرب ويذكر وينشط ويقر ويهيج، فيستعمل الهوى الذى فيه وهى حياتى وشهوئى.

فأحيا وأبهج حتى يجد هو السبيل إلى التحرك والخلص من الشجرة، وهذا ما لم أذكره لأحد قط منذ خلقت، ولولا ما أرى لك من الفضل والكرامة ما أخبرتك بهذا كله.

(قال رحمه الله: هذا الذى وصف إبليس هنا بصدق جميع ما قلنا من شأن الهوى فى النفس) .

قال يحيى عليه السلام: فالمسألة الخاصة التى سألتك، قال: نعم، سل، قال: هل أصبت منى فرصتك قط فى لحظة من بصر أو لفظة من لسان أو هم بقلب؟، قال: اللهم لا إلا أنه كان يعجبني منك خصلة فكثرت ذلك عندي، ووقع عندي موقعاً شريفاً، فتمعر^(١) لون يحيى من قوله وتبلد وتقاصرت إليه نفسه، وارتعدت فرائضه، وغشى عليه.

قال: وما ذلك يا أبا مرة،، قال: أنت رجل أكلول، وكنت أحياناً تكثر الطعام فتبشم^(٢) منه ويعتريك الوهن، والنوم، والنقل، والكسل، والنعاس، فكنت

(١) تمعر وجهه : تغير، وأصله قلة النظارة وعدم إشراق اللون .

(٢) البشم: قال ابن سيدة: هو التخمة وقيل هو أن يكثر من الطعام حتى يكرهه .

تمام على جنبك أحياناً من الأوقات التي كنت تقوم فيها من الليل هذا يعجبني منك.

قال: وبهذا كنت تجد على الفرصة، قال: نعم، قال: ما أشد لفرحك، ما أشد لحر ذلك؟، قال: قد ذكرت لك فلم تحفظه، ولكن أحملك جميع ما يكره الله وهو مختارى، وجميع ما يحب فهو منبوذى، فإذا رفع الإنسان منبوذى لم أتمالك حتى أحتال بكل حيلة حتى تنبذه، وإن زين له مختارى حتى يرفعه لأن حياتي في استعمال مختارى، وماتى وهلاكى وذلى وضعفى في استعمال منبوذى ومرفوضى وهو الحلال، والطيب من الأشياء والأحزان، ومختارى الحرام والخبيث من الأشياء والأفراح^(١)، بها قد حظر الله عليك، قال إبليس: حسبك يا يحيى فرحاً بما أظهر ليحيى أنه قد وجد عليه ساعة فرصة .

قال يحيى: ولم تجد على الفرصة من عمري إلا الذى ذكرت، قال اللهم لا إلا ذاك، قال يحيى: عاهدت الله عز وجل نذراً واجباً على أن أخرج من الدنيا ولا أشبع من الطعام، قال: فغضب إبليس، وحزن على ما أجزه، فاحترز يحيى واعتصم، قال خدعتنى يا ابن آدم، وكسرت ظهري. مما خدعتنى حتى سلت المنى، وخرج من عنده غضباناً^(٢) .

(١) نقرأ في هذا عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ البقرة/٢٦٨، ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ المائدة/٩، ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ النمل/٢٤ .

(٢) هذا الحديث الطويل لم نجده في كتب الحديث الصحيح، وقد ورد في إطار الحث والتوجيه والتنبيه إلى مكائد الشيطان ومصادره، وبوسعك أن تقرأ عبارات من هذا الحوار بين إبليس ويحيى عليه السلام متناثرة في كتب السلف .. لكن الحديث بجملة وتفصيله لم نعر عليه كاملاً .

باب: صفة جنود إبليس وبدء أمره وقصته ومصائبه وتفسير هواه وحياته:

وأما أسماء المائة خلق التي سأل إبليس ربه وجعلها لجنوده، كما أعطى لآدم عليه السلام، فلما أعطى آدم المائة خلق، وقيل له: هذا جند من جنود الله استعمالها على عدوك إبليس.

سأل إبليس ربه أن يعطيه أضادها كي يحاربه بها، فأعطاه إياه، فجعل الهوى ملكاً، كما أن المعرفة جعلت العقل ملكاً، وجعل ما أعطى تابعاً له، وأعرافاً وجنوداً، كما جعل العقل ما أعطى جنوداً وأعرافاً.

باب صفة أخلاقه:

باب صفة أخلاقه وهي: الكفر، والجهل، والكبر، والحسد، والحقد، والمكر، والخذع، والغش، والغل، والخيانة، والعداوة، والكذب، والزور، والبهتان، والشر، والنميمة، والغيبة، والجبن، والمداينة، والرياء، والسمعة، والهيل^(١).

والبدعة، والصلابة^(٢)، والغى، والخيلاء، والغرور، والجور، والظلم، والبغى، والهمم، وقلة المبالاة، والخفة، والطيش، واللعب، والعبث، واللهو، والسهو، والغفلة، والسرور، والفرح بالدنيا، والعجلة، والفظاظة، والغلظة، والخشونة، والعنف، والأنفة، والاستكبار، والفخر، والخيلاء، والتبختر، والحيرة، والكسل، والثقل، والعجز، والتأخير، والملافة، والخطا، والنسيان، والسهوة، والهمة، والوهم، والتشبه، والأمل، والباطل، والتهيه، والسفه، والضحك، والحمق، والجذع.

(١) الهيل: قال الأزهري: اهتبل الرجل إذا كذب، واهتبل إذا تكلم.

(٢) أى التصلب فى الراى، والتشدد فى الأمور.

والكفران، وطلب العلق^(١)، وحب الدنيا، والأشرف^(٢) ومحمدة الناس،
والمدمة، والشبهة؛ والحرام والزينة، والحرص، والفحش، والقساوة، والشدة،
والأشرف^(٣)، والبطر، والقنوط، والشموخ، والبذخ، والختل والمدح، والتمنى،
والتجبر، والنحو، ومالتجسس، والغيرة والشكاية، والصلف.

فهذه الجنود التي أعطى وهي مائة خلق من أخلاق الهوى التابع له، وهم
أعداء أخلاق آدم عليه السلام، فعُدو العلم الجهل، وعدو الحلم الحمق، وعدو
العقل الغي، وعدو العمل الكسل، وعدو اللين الخشونة، وعدو التاني العجلة،
وعُدو اليقين الشك، وعدو الورع الفجور، وعدو الشكر الكفران، وعدو الصدق
الكذب، وعدو الرفق العنف، وعدو الصواب الخطأ، وعدو الذكر النسيان، ثم على
هذه الصفة إلى آخره.

فمتى استعمل الآدمي خلقاً من تلك الأخلاق، أبرز الهوى خلقاً من أخلاقها
ليحاربه فهذه صفة الأخلاق وبيانها.

(١) طلب العلق: أى الهوى يكون للرجل في المرأة . قال اللحياني عن الكسائي: ها في قلبى علقُ
حُب، وعلاقة حُب، وعلاقة حُب .

(٢) الأشرف: ربما يراد بها العلو والتعالى والتفاخر بالشريف كما تشير المعانى القاموسية للكلمة.

والإشراف يراد به الحرص، ويراد به الظلم كذلك قال ابن الأعرابي:

استشرفتنى حتى أى ظلمنى.

(٣) تكررت الكلمة ذاتها هنا (الأشرف) ولعل هذا نسيان وقع فيه الكتبة، والله تعالى أعلى وأعلم.

باب صفة القلب والنفس والصدر

رجعنا إلى ما كنا فيه من شأن القلب والنفس والصدر:

ومعسكرهما، وللقلب سبع مدائن، بعضها فى بعض بحيطانها وأبوابها وستورها، والملك فى أقصاها، وهو اللباب بجنوده، والصدر مدينة عظيمة حولها بمن فيه من المدائن والمجالس والمعسكر والمدد المعادن، والعقل معدنه فى الدماغ، ومسكنه فى الصدر بجنوده وحشمته وهو والى الملك أعنى المعرفة.

فالنفس مدينتان عظيمتان إحداهما فى الأخرى، إحداهما باطنة، والأخرى ظاهرة، أما الباطنة فدار حرب، والأخرى تابعة لمن غلب وتسلط واستولى فيها، صاحب مأوى، وهو الخناس^(١)، وطليعه تبعث الأخبار وهو الجاسوس، أعنى الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس.

كما وصفنا هذا أبدأً فى موضعه، والجوارح قرى حولها، وعلى كل واحد منها عامل، وإذا كان العدو مغلوباً مقهوراً والهوى مسجوناً كان الملك وهو المعرفة فى سلطان جارٍ، وملك وهيبة وجمال، وأمرنا فداً^(٢) مطاع وعز وشرف منوراً، قد سطع نور الجلال من لدنه إلى أقصى المدينة، لما بها حية طرية أعنى القلب.

(١) الخناس: فى الحديث الشريف (الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خنس) أى انقبض منه وتأخر... والحاصل أنه إذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس؛ فإذا ترك ذكر الله رجع إلى القلب يوسوس. قال ابن عباس: الشيطان جائم على قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح فإذا ذكر الله خنس.

(٢) فداً: فداً يَفِدُ فداً وفديداً: اشتد وطؤه فوق الأرض مرحاً ونشطاً. ورجل فداد: شديد الوطء. قال ابن الأعرابي: فدد الرجل إذا مشى على الأرض كبراً وبطراً.

وكان المدائن حوله ساكنة مطمئنة قد انجلى عنها غم الهوى، وغم الضلالة، ودخان الشهوة، والعامل فى عز وشرف وبهاء ورفعة منوراً، قد سطع نور الرغبة والطاعة، ونور الفرح منه إلى أقصى المدائن وقراها، وكانت المدائن مطمئنة ساكنة، وكان العمال بها مطيعة، والرعية فى راحة، والخناس مقصور، والرسواس متجمع، والهوى مسجون، واللعين مدحور محسود.

وإذا غلب عليها العدو أخذها عنوة، وأصر عليها أميراً، ودخلت الجنود مع أميرها، وحشمه بظلمه ودنسه وشهواته وملاهييه وأباطيله وخدعه وأدناسه ونتاجه ودخانه وغيمه. قويت النفس وهو الهوى وحييت وتخلصت من السجن وعسكرت واستعمل عليها عامل، وعلى القرى عمال، وثبت ملكه إلى أن يأخذ مسكن العقل وموضع قضائه فيجعل عليه العقل بجنوده، وينصب الحرب بينهما فتثور من بينها عجاجة^(١) سوداء، ودخان مظلم من نتن الهواء وظلمته.

فيظلم على القلب مسكنه، وهو الصدر، فيصر الملك ومن معه من الجنود فى حجب من ظلماتها ودخانها.

فإما إن كانت الغلبة له عليها، وإما عليه لها، فإذا كانت الغلبة عليه انهزم العقل بجنوده من شدة الظلمة ونتاجها ودخانها وضعف وأنزل وأخذ بمركزه وجأ إلى ملكه وهو المعرفة بجنوده، مستغيثاً فزعاً. وتركوا الميادين، والمراكوز، وهوى الصدر، وأخذوه ونزلوا به، وكان الأمر أمر العدو، والسلطان سلطانه نافذ، أمر مطاع مشكور، المدائن ساكنة مطيعة، والقرى محمودة مرضية، والرعية مطواعة، والعمال فى سعة العدو فرح. واللعين مستبشر مباحى.

(١) العجاجة: من العجاج الدخان والعجاجة أخص منه. وعجاج البيت دخاناً فتعجاج البيت دخاناً فتعجاج: ملاء.

وكان الملك وملك الملك وهو العقل والمعرفة وجنودهما وحشمهما محجوبين مسجونين مقصورين مذللين، لا يجاوز أمرهما وسلطانهما ربض المدينة وهو القلب، فيجزع الملك من ذلك، ويحزن ويستوحش وينقبض وينزوى، فينجلى من القلب من نوره قدر الانقباض ولا يذوى، فيصير ذلك الموضع من القلب خالياً من النور.

فكلما كان سلطان العدو أجرى، وأمره أنفذ، كان الصدر أظلم، وكلما كان الصدر أظلم، كان الملك أحزن، وأوحش، وكلما كان الملك أوحش، كان انقباضه وانزواؤه أشد، وكلما كان انقباضه أشد، كان سلطان نوره أضعف، وكلما كان سلطان نوره أضعف، كان القلب من نوره أخلاف ذلك.

أنه لا يصل إلى جوال^(١) القلب، وزوايا نوره؛ لانقباضه وضعف نوره، لوحشته الأخرى إلى المصباح في بيت واسع، فكلما كان سلطان السراج أشد، كان البيت أضوء وأنور وأسطع، حتى يجاوز وينفذ المساكن.

وكلما كان سلطانه أضعف، كان البيت أظلم، فليس له سلطان يسطع لظلمته ووحشته، فظلمة دخانه على الصدر، وعلى باب القلب، فإذا طال ذلك عليه وهو محبوس مسجون محجوب، قد حبسته غيوب جنود العدو ودخانها، منطوى سلطان نوره، مرضت المدينة أى القلب وصارت كسنة مقحوظة، قد منع عنها الماء فيبست أشجارها، وتغيرت ألوانها، فلم يزل مريضاً عليلاً حتى يموت.

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا

(١) الجُول: لُب القلب ومعقول.

وقيل: جُول القبر ما حوله، وفي حديث الأحنف: ليس لك جُول أى عقل مأخوذ من جُول البئر بالضم وهو جدارها.

يكسبون^(١). قال: الذنب على الذنب حتى يموت القلب، وذلك أن العدو إذا كان مسلطاً على المدائن، كان الأمر أمره، وكانت الرغبة مطيعة له، فكلما أمر أمراً أطيع، فذلك كسب ودين على القلب وانقباض، فإذا ظهر الانقباض منع الماء، فإذا منع الماء عن المدينة، ظهرت في ألوانها وأشجارها الشدة واليبوسة، حتى إذا كان ذلك، وكثر؛ مات القلب.

وذلك أن الروح ضعفت وكذلك البدن، ألا ترى الإنسان إذا نام ومرض أو عفش عليه، لا يمكنه التحرك ولا القيام والروح فيه لم ينقض منه، فكذلك القلب إذا انطوى سلطان النور وانقبض، ضعف القلب ويس، وكذلك الشجر إذا منع عنها الماء مرضت حتى تيس.

فالنور للقلب كالماء للشجر وكالروح للشجر، ومنه سمى يحيى، يحيى لأنه لم يعص ولم يهَمْ بمعصية^(٢) وذلك أنه لم يعمل عملاً يظلم عليه وحجه فتستوحش منه المعرفة فيقبض، فيطوى نوره وينجلي من القلب قدره من النور فيبس ذلك الموضع منه، ومنه قوله: "لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين"^(٣) أى من قلبه كله

(١) سورة المطففين: آية ١٤.

والذين يعتلى قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين.

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت) فذلك قوله تعالى ﴿كلا بل زان على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

(٢) إذا كان مراد الشيخ هنا يحيى عليه السلام فهذا كلام جدير بالقبول؛ ففى تفسير قوله تعالى ﴿وسيداً وحصوراً﴾ أن النبى ﷺ قال (كل ابن آدم يلقي الله بذهبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين).

(٣) سورة يس: آية ٧٠.

حتى بنور المعرفة لسطوعه عليه، ليس ثم من يحجب نوره أو يظلم عليه فيقبض؛
فينجلي عن القلب قدره من النور.

رجعنا إلى ما كنا فيه:

فإذا طال ذلك على الملك شكاً إلى الله طول ما يلقي، فإما أنه يؤيده حتى
يهزم العدو ويستولى على العصاة ويقهر جنوده، وإما أن يغضب فيلعن فإذا غضب
فلا بدّ من إحدى أربع.

إما أن يسلب المعرفة ويقفل على قلبه.

وإما أن يُطبع على قلبه^(١).

وإما أن يجعل عليه غلافاً، وإما أن يختم^(٢) عليه، ومن ذلك قول تعالى:

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾^(٣) وقوله: ﴿وَنُطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾^(٤). وقوله: ﴿قُلُوبُنَا
غُلْفٌ﴾^(٥) وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾^(٦).

وأشدها الختم. فإذا أسلب المعرفة عمى وصم وبكم، وذلك أن القلب قالب
المعرفة، كما أن البدن قالب الروح.

فالبطن ناطق سامع بصير ما دامت الروح فيه، فإذا خرجت الروح صم وبكم
وعمى، والقلب إذا خلا من المعرفة عمى وصم وبكم؛ فذلك قوله: ﴿صَمَّ بَكَمْ
عَمَى فَهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٧).

(١) الطبع على القلب والختم على القلب بمعنى واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء.

(٢) الختم على القلب أى لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنه طُبع.

(٣) سورة محمد: آية ٢٤.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٠٠.

(٥) سورة البقرة: آية ٨٨.

(٦) سورة البقرة: آية ٧.

(٧) سورة البقرة: آية ١٨ ونص الآية الكريمة هو ﴿صَمَّ بَكَمْ عَمَى فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وليس يعقلون.

موت القلب:

وللقلب موتان: موت خروج النور، وموت ضعف سلطان النور والمعرفة فيه كما ذكرنا. فنعوذ بالله من الخذلان، ونسأل الله أن ينصرنا على عدونا نصراً عزيزاً، ويجعله ذليلاً مقصوراً، كما هو محسور مدخور، ويجعلنا ممن يتخذونه عدواً كما هو عدو، وأن نتعظ ونذكر بما وعظ ربنا، وحذرنا في تنزيله فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ

عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾^(١).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَهُم بِالْمُودَةِ﴾^(٢).

وقال: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^(٣).

وقال: ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّ لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾^(٤).

﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٥).

وقال: ﴿أَفَلَا تَغْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَكُم بِأَلَلَةُ الْغُرُورِ﴾^(٦) "وقال

الشيطان لما قضى الأمر إن الله عز وجل وعدكم وعد الحق ووعدتكم

فأخلفتكم"؛^(٧) وقال ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم

مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾^(٨).

(١) سورة فاطر: آية ٦.

(٢) سورة الممتحنة: آية ١.

(٣) سورة النور: آية ٢١.

(٤) سورة يس: آية ٦٠.

(٥) سورة يس: آية ٦١.

(٦) سورة فاطر: آية ٥.

(٧) سورة إبراهيم: آية ٢٢.

(٨) سورة البقرة: آية ٢٦٨.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل مغفرته وعدته، إنه كريم، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

قال الله عز وجل: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا﴾^(١) فالبلد الطيب النفس مطمئنة، يريد التي غلب عليها ماء الرحمة والملك بأعوانه فاستولى عليها، وقهر العدو والنبات والثمرات وهى الأعمال، وقوله: ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا﴾. والذي خبث أى ما غلب عليها السبخة^(٢) والعدو فاستولاها لا يخرج ثمراتها أى أعماله إلا نكداً^(٣).

فالقلب مستقر ماء الرحمة، ومعدن نور العطف، والمعرفة، والنفس أرض ميتة ذات سباح، والجوارح الأشجار، وما يخرج من الجوارح من الأعمال الحسنة الثمرات.

فمتى ما كانت السبخة فيها ذائبة متلاشية كانت أنهارها تجري بمياهها من المستقر إلى أشجارها، ومن المستقر إلى المدينة، وهى النفس سبعة أنهار، ومن المدينة إلى الأشجار سبعة أنهار، على كل نهر أنهار شتى ما بين صغير وكبير.

قيل له : ما السباح التي ذكرت؟ قال: نصفه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

فإذا كانت أنهارها جارية صافية كانت المدينة ساكنة طيبة مطمئنة، والملك عليها أميراً فرحاً مستبشراً، وأشجارها غضة طرية موفقة مزهرة، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، والأكل الثمرات.

(١) سورة الأعراف: آية ٥٨.

(٢) سبخك السبخة: الأرض المالحة. والسبخ: المكان يسبخ فينبت الملح وتسوخ فيه الأقدام.

(٣) النكد: الشؤم واللؤم ورجل نكد أى عسر، وجاءه منكداً أى غير محمود الحظ.

فإذا ظهرت السباخ في أنهارها، وغلبت عليها، غلبت الماء وامتزجت به، فإذا لم يجر الماء في أنهارها تشفت أشجارها، وتغيرت ألوانها، وانقبضت وانزوت أوراقها واصفرت وتناثرت، وسلبت منها الطراوة، ولم تخرج ثمرتها إلا في كدٍ وشدة.

وما أخرجت من بين مرٍ وحامض وحلو لغلبة السباخ عليها وامتزجها بماء الرحمة، فإذا دام ذلك، وطال تكدرت المياه كلها وغارت وتلاشت، وذاب سقناها من ذلك الشين فسدت عروقها وغفت وتيبست أشجارها أصلاً وفرعها، فلم تثمر ولم تخرج، ولم تنور فحينئذ يغضب الجليل؛ فيحظر عليها ويسد أفواه أنهار القلب.

فلم يجر إلى المدينة فخرجت المدينة ومن فيها وماتت ثم سلب ماء الرحمة من القلب وحرمت وتيبس القلب وقسا فمات فخرّب القلب، وخربت النفس وتيبست الأشجار وصار كما قال الله تعالى ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾^(١).

قال: وإذا مات القلب وماتت النفس وتيبست الأشجار أثمرت الشوك وهو الكفر والشرك، وذلك أن السبّخ هي أصل النفس وجوهرها وخلقتها وهي الهوى، والهوى من الكفر، وذلك أنه من الهاوية، فإذا فرغ ماء الرحمة من مستقره، وسلب أبدل مكانه فصارت الأنهار تجري بمياه الكفر، وصار سقيها من ماء الكفر، فإذا جرت المياه من الماء الكفر، أثمرت ثمرات الكفر والشرك، كما قال الله تعالى: ﴿والذى خبث لا يخرج إلا نكدا﴾^(٢).

فالبلد الطيب النفس إذا كانت قد غلب عليها ماء الرحمة وجرى في أنهارها

(١) سورة المائدة: آية ١٣.

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٨.

فصارت حية طيبة، وصارت أشجارها طرية غضة موقنة، فإذا أبدل مكانه ماء الكفر خبث والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا أى خبيث تغلبه السباح عليه فى أنهارها، فتشكت أشجارها لما نزع ماء الرحمة أبدل الكفر .

قيل: وما أصل السباح؟ وكيف أصل خلقتها، وبذور أمرها، وغلبتها على الماء فى أنهارها وبين لنا.

قال: إن النفس الباطنة من موطن الشيطان وتحت قدمه، وأما النفس الظاهرة فمن بين خطوته وبين موطنه، وهى مهدودة مبسوطة من النفس الباطنة، إذا كانت الحلقة هى الأس والبيئة فهى كالقائمة الظاهرة، والظاهرة محذوق^(١) عليها مركبة مغرورة فيها.

فلما عرف اللعين ذلك كله من نفس آدم، علم أنه سيظفر به إذا احتاج إلى ذلك، إذ وجد نصيبه فيه قائمًا، فلما أمر بالسجود نظر فوجد نصيبه فى آدم وهو النفس، فأبى ذلك وتكبر.

ووجد اللعين ذلك فى نفسه من نفسه فاتفقا فأبى وعتا وتكبر، فلعن وطرد، فلما أسكن آدم الفرديس تفكر اللعين فى أمره وأمر آدم، إذ لعن فى جنبه فهاجت من إبليس بحور الحميد بمياهها وإن بدت وامتدت، فسالت منها عليه أودية فاغترف من ذلك بالقياس والحيلة على ما يبغض به على آدم ما نال من النعم وبما سلبه تلك الكرامة وبما يهلكه.

فاغتنم بالشجرة التى نها الله آدم عنها، فاحتال حتى وجد عليه الفرصة من ذلك الوجه، فلما قال آدم ما قال، وأشار عليه بالأكل، تفكر آدم فى نفسه،

(١) الحذوق: المعنى الذى يساير السياق هنا هو، حذق الخل يحذق حدوقًا: حَمُض .

فهاجت منه مياه النور والرحمة والعلم، وامتدت فاعترف آدم منه بالحكمة والنظر والتدبير بالأخذ إلى ما أشار بالانتهاء عنه، وكان مرة يأتي على قلبه أن لا، ومرة أن أدن.

فانتهى آدم يشاور في ذلك، فسبق اللعين إلى القسم بالغرور، وتصديقاً على ما أتى على قلب آدم عن الدنو، إذ كان ذلك من النفس الباطنة التي هي من موطن اللعين، فحرصه عليه وندبه إليه ورد ما أتى على قلبه من الانتهاء، وذلك أن الذي نهى عن ذلك كان الحكمة والعلم، والذي ندبه إلى الأخذ كان من النفس الباطنة موافق اللعين، وكان سأل ربه أن يعطيه السلطان ليجرى فيه مجرى الدم في عروقه، فأعطاه مالا إذ كان موطنه في آدم قائماً وهو النفس، إذ سأل ربه أن يجرى في دعوته، والسبيل إلى حقه، وهو أصل خلقه آدم، إذ جبل في أثر تراب قدمه وموطنه، فصار ذلك وراثته في ولده، فهو يجرى منهم مجرى الدم، ومن ذلك حرم الدم المسفوح^(١) لما يجرى اللعين.

والدم في مجرى واحد في العروق، وذلك أن اللعين نجس، فينجس الدم الطيب في العروق والطيبة بنجاسته بجريرتهما جميعاً معاً في مجرى واحد، فإذا أراد اللعين أو بعض أعوانه أن يدنو من بني آدم وجدت النفس الباطنة رعدة فعرفته، فإذا دنا منهما أحست أثره وعلمت أنه قد دنا، فرحت وابتهجت، فأشرأبت شوقاً إليه، إذ لقي بعض العضو وبعض عضو والحب جنه فاهتشت لرؤيته، وانبشت^(٢) بلاقائه،

(١) الدم المسفوح: قال عكرمة في قوله تعالى (أو دماً مسفوحاً) لولا هذه الآية لتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود.

(٢) البش: اللطف في المسألة والإقبال على الرجل والبشاشة: طلاقة الوجه. وفي حديثي على رضى الله عنه: إذا اجتمع المسلمان فتذاكرا غفر الله لأبشهما بصاحبه.

وازدهرت للدنو إليه.

ودخل الشيطان يجرى فى العروق فعرق من شدة السرور والابتهاج والذنيث فى ضيق المجارى، فامتزج عرقه بماء الرحمة الذى يجرى فى مجارى العروق، وتلطخت نجاسته فى مجارى عروقه، فتكدرت المياه والدم من نجاسته وعرقه وجربه ودخانه وظلمته، وكثرت وامتدت.

فكلما كان جريه فيها أدم وأدب، كانت العروق بما فيها من مياه الرحمة أكدر وأثمل حتى ينكدر وتحمى وتفور من ضيقة الأنهار وهى العروق، فإذا طارفه^(١) - لك فيها ودام^(٢)، واوندت^(٣) وأحمدت واستحت وسعلت^(٤) الكدورة^(٥) والنقل. فسدت أفواه المجارى، وأينعت من كثرة الكدورة وشدة السباخ والزبد، وحسنت العروق. فلم يجد الماء نسل إلى الجرى فركدت بأجمعها.

وإذا ركدت واجتمعت المياه وفارت فوق الصفة فأصابت السباخ والزبد الذى على الصفة وامتزجت بها.

فإذا طال بها ذلك ودام، وانكسرت التبوق^(٦) والسدد^(٧) من كثرة الماء،

(١) طارفه : قاتله، وأغار عليه .

(٢) لك : ازدحم .

(٣) أوند : طابت رائحته .

(٤) سعل : نشط .

(٥) الكدورة : جعله كدراً .

(٦) التبوق : لم يرد لها معنى فى قواميس اللغة جميعها .

(٧) السدد : لعله يريد بها السدود وإنما وقع التصحيف من الكتبة، والسياق يرجح ذلك .. والسد : الرَّدَم لأنه يُسد به والسُّد والسَّد : كل بناء سُد به موضع .

وتطرق فذهبت حفائرها وسحنها، فإذا جرت إلى الأشجار اصفرت الأوراق
ويست الأشجار، وانزوت الثمرات، ومرّ الحلو الطيب، وزبلت الطرية الغضة
وانقضت، وفستت وزبلت المزهرة المونقة، وشاكت الأشجار بما فيها من سلطان
الهوى والكفر.

وذلك أنها إذا طال ذلك بها، ولم يعالج صاحبها اصلاحها بالمجاهدة على
إخراج اللعين وطرده، غضب الجليل - سبحانه - على صاحبه فسلبه ماء الرحمة،
ونور المعرفة، وأبدل مكانها الكفر، فتجرى مياه الكفر والهوى مع اللعين في
المجارى، فإذا جرت إلى الأشجار شاكت الأشجار من سلطان الكفر، وأثرت
الأعمال السيئة، ولم يخرج النافع إلا نكدا كما قال الله تعالى .

قيل له: وهل تخرج الأشجار التي تشوك النافع ؟

قال: نعم، ألم تر إلى الكافر وما يجرى عليه من الأعمال الصالحة. آخر كلام
الغور والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين .

من كلامه في الذكر^(١): إذا نطقت الألسن بالذكر ظهر ثناؤه، وذكر محاسنه
وصنائه، فصعد هذا الذكر إلى الله - عز وجل - فوقفت أنوار الذكر بين يديه
كالشفعاء لقائله فعندها يذكر الله - تبارك وتعالى - عبده بما يقربه إليه.

فيظهر من الرب تبارك وتعالى للعبد ذكر بالنظر إليه في جميع أموره، فيشتمل
ذلك الذكر من الله جل ثناؤه على سيئات العبد.

لأن الرب إذا ذكر عبده فإنما يذكره بالثناء عليه، فذلك الثناء من الله عز

(١) من كلام الناسخ .

وجل - على سينات العبد، لأن الرب إذا ذكر عبده، فإنما يذكره بالشئاء عليه، فذلك الشئاء من الله - عز وجل - يشتمل على مساوى العبد فنشهرها حتى تذوب تلك المساوى فى حريق ذلك الحب، اذ قد تضمنه ثناء الرب تعالى، وتقديس وتلاشى، فهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿واذكرونيك إذا نسيت﴾^(١) فجعل ذكر الحادث عوضاً عن الغائب فى ساعات النسيان، ومستدركاً له، وهذا العظم حرمة الذكر، ودفع مرتبته .

من كلامه رحمه الله: قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن ابن الحكيم الترمذى، قدس الله روحه^(٢)، حدثنا صالح بن عبد الله قال: حدثنا يوسف بن عطيه عن ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً: هل تدرون من المؤمن؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: المؤمن من لا يموت حتى يملاً مسامعه ما يحب، ولو أن عبداً إتقى الله فى جوف بيت الى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد، ألبسه الله رداء عمله. وذكر الحديث.

وكان ثابت اذا حدث بهذا الحديث يقول: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : (نية المؤمن أبلغ من عمله)^(٣) .

قال حدثنا نعيم بن حماد عن عبد الوهاب بن همام الحميرى سمعت أبى وهو يحدث عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله ما أفضل العمل؟ قال: النية الصادقة".

(١) سورة الكهف / الآية ٢٤ .

(٢) من كلام الناسخ .

(٣) الحديث رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالك وروايته (نية المؤمن خير من عمله) وهو حديث ضعيف وفى رواية (أفضل العمل النية الصالحة) رواه الحكيم عن ابن عباس رضى الله عنه.

وعن ابن جريح قال: قلت لعطاء: ما معنى نية المؤمن خير من عمله؟ قال: لأن النية لا يكون فيها رياء فهدرها.

قال أبو عبد الله: ووجدنا من طريق الاعتبار عندما ميزنا بين النية والعمل، أن العمل منقطع والنية دائمة، وتصديقه في حديث ثابت عن أنس: والعمل علانية، والنية سر.

وتصديقه في حديث عطاء، والعمل في السر مضاعف، والعمل سعى الأركان إلى الله وإليه سعى القلوب إلى الله، والقلب ملك والأركان جنود، ولا يستوى سعى الملك وسعى جنوده، والعمل يوضع في الخزائن، والنية عنده لأنه الذكر الخفي، والعمل موقوف على نهايته، والنية لا تحصى نهايتها، والعمل تحقيق الإيمان وإظهار النية تصديق الإيمان بمنزلة الشجرة.

لأن الشجرة خشبة منصوبة، فبظهور ورقها يكون هي شجرة وليس السورق، إنما هو زينة الشجرة، والشجرة من الفرع، والفرع سكناه من الأرض.

وذلك قوله تعالى في كتابه: ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾، فالأصل هو الإيمان الذي في القلب، والنية هي فرعها في السماء، والعمل هو الأكل، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، والعمل موكل بها الحفظة، والنية لم تطلع عليها الحفظة، والعمل في ديوان الملائكة، والنية في ديوان الملك، والعمل الواحد لا يعد، ونفس ذلك العمل، ولا ينتظم غيره.

وبالنية تنتظم الأعمال، والعمل ثوابه من درجات الجنة، والنية ثوابها من منازل القربة، والعمل أجناس لا يشته به بعضه بعضاً، ولا يقدر العبد أن يعمل عملاً ينتظم جميع الأعمال، والنية تشتمل على الأشياء، وذلك إذا نرى بلوغ مرضاته، ومرضاته جميع الطاعات، فهو في ذلك الوقت كأنه قد أخذ بعروة الطاعات كلها،

فهو كالعامل لجميع الطاعات.

وهذه النية كلها للصادقين من عمال الله، يحتاجون إلى نية في كل أمر لأن قلوبهم مع الأشياء، فيحتاجون إلى أن تتسوق إلى الله عند مبتدأ كل أمر، وكذلك جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنما الأعمال بالنيات)^(١) ولا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، وأصل النية من طريق الإعراب هو النهوض.

يقول: فاستوى، أى نهض ينهض، فإذا كان القلب فى حبس النفس، فإنه يحتاج إلى النهوض إلى الله عند كل أمر وهو الإرادة والقصد إليه، وإذا تحت^(٢) لأى القلب من حصار النفس، فصار إلى الله وتعلق به وحيابه.

فمحال أن يقال: نهض إليه لأنه عنده، ولا يحتاج إلى نية هو فى كل أمره عند ربه بقلبه. فقد سقط عنه هذا النظر، وهذا عنده محال بعد أن استقام إلى الله قلبه عبودة، وقام بين يديه فى درجة القربة، فهذا دائم له فى كل حال.

قال أبو عبد الله رحمه الله - وجدنا الذكر على ضربين، ذكران ذكر أهوية بلا كيف فيفرق فيه الدنيا والآخرة والنفس والملكوت وملك الملك فتأخذه البهتة^(٣)، فهذا ذكر العارفين.

وأما ذكر الموحدين فهو أن يذكر من أهوية الألوهية فقط، والنفس شهواتها جائئة على القلب كالفحل المغتلم^(٤) الذى يهدر ويضرب بأنياه الذى يحتم على

(١) رواه البخارى ومسلم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) تحت : تحرك - لأى : الإبطاء والاحتباس: ويراد به كذلك المشقة والجهد .

(٣) البهت: الانقطاع والحيرة، رأى شيئاً فبهت: ينظر نظر المتعجب وفى التنزيل الحكيم ﴿فبهت الذى كفر﴾ البقرة ٢٥٨ ، أى انقطع وسكت متحيراً عنها .

(٤) المغتلم : العظيم .

الإنسان فيدوسه تحت ميسمه^(١) في التراب بالأرض - فمن ذكر لا يجد على قلبه إلا ذكر الألوهية، ثم يغفل عنه، ولا يجد ذكره عند كل أمر أو حكم حال الأشياء بينه وبين ذلك، ولم يكن لذلك النور من السلطان ما يحرف^(٢) عن قلبه جميع الأشياء فتجده ذاكرة غافلاً مطيعاً عاصياً ومقبلاً لاهياً، فهذا أحد الطرفين.

والطرف الآخر: أن ينقلب القلب من جثوم النفس عليه ويخرج من آثارها فيجد فسحة وروحاً، ويتمكن، ويتمدد، ويتحنج^(٣) فيما ورد عليه من العطاء منه من الله على عباده، ودولة من السعادة ظفر بها، ورحمة منه أدركته.

فلم تزل المنن تتابع عليه بالأنوار هداية من الله وعوناً على سيرة إليه ووفوداً به إلى بابه، حتى جاوز الأشياء إلى خالق الأشياء، وجاوز الملك إلى مبدئ الملك، فوصل إلى ذكر هويته. ففرق فيه قلبه مع الأشياء كلها.

فالموحدون أخذوا بالطرق الذي ذكرناه بدءاً، والعارفون أخذوا بهذا الطرف وهو ذكر واحد، ومعرفة واحدة، ثم ضم كل ذي روح بدت على الأرض في الكفالة فدخل الدواب والبعوضة والحميان والقردان والخنفساء والبغلان والقردة والخننازير.

فكلهم داخلون في كفالته، ثم قال في كتاب مبين أى أنه أبرأ القلب، فأبان في الكتاب أى أظهر من الغيب في الكتاب، والكتب في لغة العرب النظم، والنظام

(١) الميسم: المشى في الأرض.

(٢) حرف: مال. قال الأزهري: وإذا مال الإنسان عن شئ يقال تحرف، وانحرف، وحرورف.

(٣) التحنجة: صوت يردد الرجل في جوفه. قال الأزهري عن الليث، التحنجة التحنج وهو اسهل من السعال، وهي غلة البخيل، الذي إذا سئل اعتل كراهة للعطاء. فردد نفسه لذلك.

الكتاب، واللوح يلوح بأقدار الله ومشيتته وعلمه.

فنظمه وأثبتته ثم أظهره فلاحاً الملك الذى هو موكل برفع نسخة قصة العبد بخلقه ورزقه وسعيه وأجله فاستنسخه وناوله السفرة الكرام البررة. فهم يسكرونها فى السماء حتى يظهر على العبد فى الأرض، وكل به الحفظة الكرام الكتبة.

حتى إذا كان يوم البروز إلى الله فى العرض على الله، نشرت الصحف، وهو قوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾^(١) إلى قوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا أَحْضَرْتَ﴾^(٢) فكشطت السماء أى نزعت، وظهر العرض، وبرز الديان، وظلل الغمام، ووضعت الجنة على اليمين، والنار على الشمال، ثم نُشرت الصحف، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد بما كسبت، معلقة صحيفته على عنقه، وتلك الصحيفة التى كتب عليه الحفظ، وهو قوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(٣).

فهذا كتاب الحفظة، ثم قال: ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً^(٤)، فهذا كتاب السفرة، ثم قبلت هذه التى أحصتها الحفظة بالتى كانت فى أيدي السفرة المنسوخة من اللوح، فلا يوجد فيه زيادة حرف، ولا تقديم حرف، فأحكم تبارك اسمه شأنه فى الرزق على هذا العبد بإجازه الحجة عليه، وتفريقاً لقلبه، وإخلاءً لصدره عن الوسواس، لأن لا يكون للعبد عليه حجة يوم القيامة عند مطالبته بالعبادة أن يقول: شغلنى رزقى ومعاشى وضرورات.

(١) سورة التكوين / الآية ١٠ .

(٢) سورة التكوين / الآية ١٤ .

(٣) سورة الإسراء / الآية ١٣ .

(٤) سورة الإسراء / الآية ١٣ .

ثم عرفه من أسمائه العقيل، والوكيل، والحسيب، والكافي، أخرجهم من بطن أمه على تركيب اضطره إلى معرفة الرزق ما هو، فإنه جعل من تحت يده مرتزقة مرزقهم ويغذوهم وعرفهم شأن الكفالة كيف تكفل وافتضهم بعضاً:

وشأن الوكيل كيف يتوكل بعضهم لبعض، والكافي في الأمور كيف يكون، واقتضته معرفته هذه الأشياء. ليكون هذا دليلاً على كفالاته، ووكلاته، وكفا فاتسع صدره وتفسحت هممه وقدر على التفويض إليه، وترك التدبير والاهتمام والاختيار.

ولو كان ممن لم يسكن على قلبه هذه الأسماء استنائه أهل اليقين، لم يقدر أن يفوض إليه ولا يسكن في شأن الرزق إليه.

ثم عرفه من أسمائه الرحيم، ووضع في قلبه الرحمة. فإذا استعمل تلك الرحمة على عبده فرأى حسن موقعه منهم، استبان له أن الرحمة التي وضع في قلبه أين تقع من رحمته، فعلم حسن موقع عبيده الموحدين منه.

ثم عرفه من أسمائه الكريم، ثم وهب له في خلقه كراماً فعرفه عند استعماله ذلك مع عبيده أن الخلق قد غرقوا في كومه، ثم عرفه الحنان المنان فعرفه في تحته ويده وعطفه على خلقه أن المؤمن منين^(١). ظفروا بالإيمان بتحيته ومنتته، فهذه الأسماء التي أبرزها لأهل معرفته جعلها تقويماً للخلق في نوابيهم^(٢) وأخلاقهم وهديهم إليه.

فإن أردت شرحها على الاستقصار، احتجت إلى عمر طويل أكثر من عمر

(١) منين: كثير الامتنان للنعمة التي تلحق به .

(٢) نوابيهم: توبيتهم ورجوعهم .

الدنيا من أولها وإلى قلب ذكى، وإلى فؤاد فارغ، وصدر خال، وذهن صافى، وفهم لطيف وروح ظاهر، وأركان قوية حتى يبلغ من الاستقصاء بعضاً، وإنما أعنى مستقصى منتهى العباد. ومبلغهم هيهات هيهات، كيف يستقصى مالا نهاية له وقال عز وجل - ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَاداً لَكُمَاتِ رَبِّى﴾^(١) الآية، ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْهَجْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾^(٢).

وصف المنفردين:

مسئلة فى وصفى المنفردين : سألت عن الرجل، يعبد الله على طلب الثواب والفرار من العقاب، أفرض هو؟

فالجواب فى ذلك: أن الله جل اسمه افترض على عباده الرغبة فى ثوابه، والفرار من عقابه. فدعاهم إلى دار السلام. ثم افترض الإجابة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٣) وحذرهم العقاب فى دار السخة^(٤)، وافترض الفرار منها فقال ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٥). وقال: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٦).

واعلم أن الله تعالى خلق عبداً له ثم افترض عليهم أن يكونوا عبيداً كما خلقهم، فالثواب لهم على ذلك والعقاب على تضييع ذلك.

(١) سورة الكهف / الآية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان / الآية ٢٧ .

(٣) سورة الأنفال / الآية ٢٤ .

(٤) السخة : الطين أى الدار الدنيا .

(٥) سور آل عمران / الآية ١٣١ .

(٦) سورة التحريم / الآية ٦ .

فإذا كان يوم اللقاء ففريق فى الجنة، وفريق فى السعير، فأما أهل جنته وعبيد فى هيئة الأحرار والملوك، شأنهم مطردة فى جوار الملك المنان بفناء عرشه.

وأما أهل ناره فعبيد فى هيئة الإباق^(١) المأخوذون فى حال إباقهم، أبدانهم معذبة حول السخطة فى سجن الملك الجبار، فأنبأهم لماذا خلقهم فى تنزيله، فقال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(٢).

وقال: ﴿فإياى فاعبدون﴾^(٣).

وقال: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين قبلكم لعلكم تتقون﴾^(٤).

فحمد العبودية هو ترك الهوى، وهو مركب فى النفس مستعمل فى كل الأمور دنیا، وآخره، فصارت العبودية على ضربين: أحل وحرم، وأمر ونهى، فانتهى العبد عما نهى وإلى ما أمر، وبأمر ما أحل، وجانب ما أمر، ولم يفارق الهوى.

فإن أتى ما أمره أتاه مع الهوى، وإن انتهى عما نهاه، فلم يملك العباد الذين نفوسهم حية، وشهواتهم ذكية إلا هذا.

وقد قال: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾^(٥). فخلقهم وهو الذى ركب

(١) الإباق / الهاربون .

(٢) سورة الذاريات / الآية ٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت / الآية ٥٦ .

(٤) سورة البقرة / الآية ٢١ .

(٥) سورة البقرة / الآية ٢٨٦ .

فيهم هذه الشهوة فهوت بهم يمينا وشمالاً، فوقعوا فى التخليط والمعاصى، فلما أدركتهم رحمتهم، وجاءتهم نصرته، تابوا إليه، فوقعوا فى العبودية.

فالشهوة باقية فيهم، إلا أنها ضعيفة، وحدث نيرانها، وانطفت شعلتها، وتضمنتها جوارح العبد، فصارت كحجرة قد غشاها الرماد، فلم يبق فى العروق والجوارح حرارة من الشهوة، فصار الضوء كتور قد سكن وحمد تسعره، فلم يزل هكذا يصير حمرة رماداً حتى برد، فإذا ألزق به رغيث سقط، ولم يلتزق به، ولم ينخبز.

فكذلك الصدر إذا برد من حرارة الشهوة، فكلما مر به ذكر شئ مما نهى عنه سقط، ولم يلزق به، فكلما كان التنور أحمر كان الشئ به ألزق، ونصحته أسرع فى العبد حدث نيران شهواته بالنور الذى ورد على قلبه فظفر بالتوبة.

وذلك النور من رحمة الله على العبد، وللرحمة روح وبرد حيثما حلت انطفت النيران، إذ كانت هذه التنور من الشهوة مورد غداً نيران العقاب، فإذا انتهى العبد عما نهى، وأتى ما أمر، واستمر فى ذلك لم يخل من شهوة تهوى به، وهو الذى يقال له الهوى، فإن أتى ما أمر، وكان ذلك الأمر موافقاً لشهوته خف فيه، وإن كان مخالفاً لشهوته ثقل عليه، وأتاه بكرة، وإن انتهى عن شئ، وكان ذلك النهى موافقاً لشهوته. خف عليه الإنتهاء، وإن كان مخالفاً لشهوته ثقل عليه الإنتهاء.

فإنما عملت فيهم هذا العمل هذه الشهوة الباقية فيهم، فعلم الله هذا منهم قبل أن يخلقهم أذكرهم على ذلك، فخلق دار النعيم والكرامة، ودار البؤس والهوان، وافتنا خبر ذلك على السنة الرسل فيهم ليهيج من نفوسهم التى فيها هذه الشهوة، وهذا الهوى شهوة تلك الدار، وتميل بأهوائهم إليها.

فإن قال العصاة غداً محتمين بمزيدته يا ربنا إنك ركبت فينا هذه الشهوات

وهذا الهوى الذى هو أخذنا لما حرّمت.

كان من حجته عليهم أن يقول: قد خلقت داراً فيها من النعيم ما يتلاشى هذا فى جنبها، ثم أرسلت خبر ذلك على السنة الرسل ليهيج من نفوسكم التى منها سكون رغبة وشوق إلى هذا الدار، فإن كانت تلك حاضرة نظر أعينكم، وهذه غايته إلى آخره فقد جعلت بينهما من التفاوت فى البون مالا يحصيه البشر علماً، فكيف لم يهتج من نفوسكم الشهوة إليها والرغبة فيها، ولم تطف شهوتها تلك شهوتكم هذه الدنيا، ولم تتقد فى أسماعكم إشاعة هذه الأخبار من الدارين على السنة الرسل ولم ينجع فى قلوبكم.

فإن لى عباداً حضروا هذا الجمع وهم معكم، أنجع هذا الخبر فى قلوبهم، فرفضوا عامة دنياهم رغبة فيها رغبتهم فيه، تصديقاً لى لما أخبرتهم. حتى أسهروا ليلهم، وظمأوا نهارهم، فضلاً عما أمرت، وتركوا ما لم أنفهم عنه أيضاً رغبة فيما عندى.

وقد كان فى تركيب أهوائكم وشهواتكم أنكم كنتم إذا تريا لكم شئ من عرض الدنيا وحطامها الفانية رفضتم ما بأيديكم طمعاً فى نوال الزيادة.

فلوا أن أحدكم قيل له: أرفض هذا الدرهم الذى فى يدك، وخذ ديناراً إلى سنة، وكان ذلك الضمان من الصادق الملى^(١) الوفى التسارع الى ذلك - وقال إنه ليهون على رفض درهم لمكان دينار أطعمنى فيه فلان الملى الوفى ضمن لى ذلك، وشهوة هذا الدينار غلب على شهوة الدرهم، وعرفة منه شهوة الدرهم، فهذه معاملتكم أيام دنياكم فى كل شئ، فما بالكم لم ترفضوا شهواتكم التى حرمت عليكم: من أجل هذه الشهوات الباقيات التى بان تفاوتها أبعد من العرض إلى الثرى.

(١) الملى: الثقة الغنى .. وتكتب بالهمز، وبدونها مع تشديد الياء .

فقدّم عمال الله غداً على الله عاملين له على هذا، سماعين إليه على هذه الرؤية، أجابوه إلى ما دعاهم إليه من جواره بالطاعة التي رسم لهم^(١)، وقال: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾^(٢)، ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾^(٣).

فاتقوا عقابه الذي أمرهم بتقواه فقال اتقوا النار، عملوا الطاعة وشهوة الشواب قائمة بين أيدي قلوبهم عليها، يعملون، وإليها يسعون. وانتهوا عن المعصية، ورهبة القلب منتصبة بين أيدي قلوبهم، ومن أجلها ينهون، ومنها يفرون فشغلت قلوبهم نفوسهم بها، ومصيرهم إلى عقابهم، فغدو على ملك غفور كريم، يغفر الذنوب، يتجاوز عن التقصير، ويقبل الحسنات، ويعفو عن السيئات، فإن شقى جد أحد منهم، وأبسنله^(٤)

(١) كلام الشيخ رحمه الله يدور حول معنى حديث شريف، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره) وبرواية أخرى (حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره) ومعناه أى جعلت الشهوات التي حظرها الشارع حجاباً للنار، فمن هتك الحجاب ومزق حرمة ارتكاب تلك المواقف كان ذلك سبباً لاصطلاتها، وذوق عذاب الحريق، ومعناه لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره، ولا يوصل إلى النار إلا بارتكاب الشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات.

(٢) سورة الأنعام / الآية ١٥٣ .

(٣) سورة الأنعام / الآية ١٣٦ .

(٤) أبسنله: من يسئل: أى حبس، وقد جاءت هذه اللفظة مرتين في آية كريمة من سورة الأنعام، ولم ترد في أى القرآن الكريم إلا في هذه الآية الكريمة ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً وهواً أن يسئل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا هم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكسبون﴾ ومعنى يسئل: تحبس في النار، أو تسلم للهلكة .

سابق علمه فيه، فالتفت الى عمله، قايسه^(١) بالعدل، فإذا فعل ذلك به هلك واستحق العقاب، لأن العبد لم يأت بطاعة، ولا انتهى عن معصية إلا به، ولربه عليه المنة في التوفيق والعصمة.

فإذا قايس أعماله بهذين غرقت أعماله كلها، ونفيت النعم عليه، نعم الدنيا، والآخرة. فإنفلق بها، أى شئ يفكه إلا فضله ورحمته، فإن عمى أحد عما شرحناه فإن الأخبار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما حقق ذلك. روى سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: خرج من عندي خليلي جبريل آنفاً، فقال لي: يا محمد، إن لله لعبد من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل في الهجر، عرضه وهو له مليون ذراعاً في ثلثين، والهجر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج له عيناً عذبة بعرض الإصبع، بيض له بماء عذب مستبق^(٢) في أصل ذلك الجبل، وشجرة الرمان هناك، تخرج كل ليلة رمانة، فإذا العشاء ترك. فأصاب من الضوء أخذ تلك الرمانة فاكلها، ثم قام إلى صلاته، فسأل ربه عند وقت الأجل. أن يقبضه ساجداً، وإلا يجعل للأرض، ولا لشئ يفسده عليه سيلاً حتى يبعثه ساجداً، ففعل، فنحن نمر به إذا هبطنا وإذا عرجنا، ونجده في العلم أنه يبعث يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله تعالى.

فيقول له الرب: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى، فيقول: بل بعملى يارب. فيقول: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى، فيقول: بل بعملى يارب - فيقول: قايسوا

(١) قايسه: من قاس الشئ بغيره يقيسه قياساً واقتاسه قدره على مثاله.

(٢) مستبق: المكان الذى يُستبق فيه الماء، أو القطعة من الأرض على غير هيئة التى الى جنبها وأصل الكلمة مأخوذ من البقعة.

عبدى بنعمتى عليه ويعمله، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نعم الجسد فضلاً عليه.

فيقول: ادخلوا عبدى النار. فنادى: ربى برحمتك أدخلنى الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه.

فيقول: يا عبدى من خلقتك ولم تكن شيئاً؟ فيقول: أنت يا رب.

فيقول: أكان ذلك قبلك أم برحمتى؟ فيقول: بل برحمتك، فيقول: من قواك لعبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب.

فيقول: من أين لك جبل وسط اللجة أخرج الماء العذب من الماء المالح، وأخرج لك كل ليلة رمانة، وإنما أخرج الشجرة فى السنة مرة؟ وسألتنى أن أقبضك ساجداً ففعلت ذلك؟

فيقول: أنت يا رب، فيقول: ذلك برحمتى، وبرحمتى أدخلك الجنة، ادخلوا عبدى الجنة فنعم العبد كنت يا عبدى، وإنما الأشياء برحمة الله.^(١)

قال أبو عبد الله: فهذا شأن عمال الله. عملوا على طلب الثواب والهروب من العقاب، فلم تصف أعمالهم من الهوى، لأن الهرب والطلب مخزجهما من الشهوة، ثم إن الله عز وجل اصطفى من خلقه ما شاء الله، فله من كل جنس صفوة، فالعرش صفوته من الملائكة، وجنة عدن صفوته من الجنان، والكعبة صفوته من البيوت، والأمناء صفوته من الملائكة، والأنبياء صفوته من الأولياء.

(١) هذا حديث مشهور، ولعله من الأحاديث التى تشير إلى عظمة رحمة الله بعباده، حيث بحثنا عنه طويلاً فى معاجم الحديث وفهارسها المعاصرة، وكتب الصحاح وغيرها وقد اهتمنا إليه والله الحمد فى رواية مطولة أخرجها الحاكم.

والأولياء صفوته من الزاهدين ، والزهاد صفوته من العاملين والراغبين ،
والراغبون صفوته من الآدميين . لأنهم موحدون .

ثم قسم العقول بينهم ، وشرح صدرهم للإسلام ولنور معرفته هداهم ، فكل
مؤمنون ، وكل إنما يقف على درجته ، ثم من الله على طائفة منهم بنور أشعله على
قلوبهم ، فانفسح وانشرح الصدر ، وخرج من سآته^(١) منتبهاً لا من حليل ووصف
عميق ، انتبه للخالق الباري العظيم الشأن ، فامتلاً قلبه فرقاً عن عظمة العظيم ،
وحلاله الحليل ، وعز العزيز ، ففر ذلك الفرق الهوى عن قلبه ، حتى صار بمعزل عن
جميع سعيه في أمره ونهيه .

ثم رقا درجة أخرى من الانتباه فوجد النفس بما فيها من الهوى ، وباقي الشهوة قد
ذهلت عن كل حركة ، وميل لما تروا له في علم الغيب من الملك كبريائه وسلطانه .

ثم رقا درجة أخرى فوجد النفس بما فيها من الهوى وباقي الشهوة الراهلة قد
صفا وطاب لما تروا له في علم الغيب من ملك فردانيته ، فوقع قلبه هناك على
مشاهدته .

عرف الأشياء كلها فيه وأذهلته عن الجنة والنار .

وذلك أنهما كانتا للنفس ثواباً وعقاباً ، ألا ترى أنه لما ذكر الجنة قال : ﴿ فيها ما
تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ﴾^(٢) - فأى قلب نال فهمه العزيز الماجد الجواد ،

(١) سآته : خشبه (الساة : الخشبة)

نقرأ قوله تعالى عن سليمان عليه السلام (فلما قضينا الموت مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل
منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) سورة سبأ : آية ١٤ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٧١ .

وترادفت عليه بابلات بره ومتزادفات عطفه، وصلت محبته فى ملك الوحداية منفرداً به، فلم يشغل شغلاً بل تلاشت جميع أحوال النفس دينا وآخرة، وطارت الفكرة عنه فيهم، وإنما يعرف هذا من ماله ويخفى على من حرم ذاك، وسقط عن هذه الدرجة.

فإنما نال هذه الدرجة مناً من الله عليه، وامتلاً قلبه منه وصدوره، وأشعل النور فى جميع جوارحه، فهو ولهان، عطشان، وحيران، وغضبان، وسكران، يعنى غضبان على نفسه، وسكران. قد أسكن المعنى الذى حل بقلبه عن كل شئ سواه، فأحياء به فمن قلبه بالله ثم رجع إلى أمره ونهيه لم ينقل عليه الانتهاء عن نهيه، والانتهاء بأمره، ولم يستين فى قلبه السرور بالثواب.

وليس من المحال أن من هناك سرور الثواب، وقد امتلاً سروراً بإلهه، وملكه. وكيف يستعظم هذا مؤمن والجنة خلفه، وكيف يستين سرور القلب بخلقه وسروره بربه، أليس هذا من المحال. إن طلب منه، كان من المحال إن طلبت رؤية نجم من النجوم فى قرن شعاع الشمس، فالنجم نوره بمكانه، ولكنه قد تلاشى عن بصر هذا الناظر فى جنب نور الشمس. فإذا بعد منه حتى تقرب من الغروب، استبان ضوء النجم، فهذه القلوب تفاوتها بعيد نعيم أهل الجنة.

نعيم أهل الجنة:

ومما يحقق ما قلنا، ما روى لنا: أن أهل الجنة إذا زاورتهم، ثم رجعوا لم يلتفتوا إلى النعيم ثمان مائة سنة قد امتلأت أبدانهم رياء من النعيم، أفتحسب العاقل ازداد من نعيم الأكل والشرب.

وروى لنا عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: يا رسول الله أى نعيم الجنة أفضل؟

قال: النظر إلى وجه رب العزة.

وروى عن ابن عمر رفعه قال: ^(١) (إذا بلغ النعيم من أهل الجنة كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلّى لهم الرب - عز وجل - فنظر إلى وجه الرحمن نسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجهه فيقولون: يا أهل الجنة هللوا لي، فيتجاوبون بالتهليل، فيقول فيهم: يا داود فمجدني كما كنت تمجدني في دار الدنيا، فمجد داود ربه.

قال أبو عبد الله فكذلك في الدنيا وقوفهم بين يديه ينعمهم في مقاماتهم، ويذهلهم عن الالتفات إلى شئ من الثواب، وهيتهم له يذهلهم عن الالتفات إلى العقاب إذا كان الالتفات إليهما اشتغالا عنه بالنفس، وبعد ما بين المشغول به، والمشغول عنه ورغبتهم في الثواب، ورهبتهم من العقاب منكمنة ^(٢) في نفوسهم ككمون النار في الحجر.

ألا ترى إلا إذا قدح بالزند وذنده الذكر. هاجت قلوبهم، فهيئات أن يقف أحد على وصف ما يهتاج من قلوبهم من رؤية الثواب والعقاب، وكيف يقدر أحد وصف ذلك، إنما يرون الثواب من رأفته ورحمته وكرمه وفضله، والعقاب من سخطهم، فبنوره ينظرون إلى الثواب والعقاب، والعمال بنور العطاء ينظرون إليهما.

فكما بين النورين من التفاوت كذلك تفاوتهما في الخوف والرجاء والرغبة

(١) لم نستدل على هذا الحديث الشريف في كتب الصحاح بلفظه هذا، وإنما وردت أحاديث متواترة عن النظر إلى وجه الله تعالى بالفاظ مشابهة، منها قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعظوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم).

(٢) منكمنة: مستورة. يقال: كنه كَنّا وكنونا واكننه أى ستره.

والرهبة لا يقدر أحد أن يخاف ويرجو ويرهب إلا بقدر ما يرى، ولا يرى إلا بقدر ما يرى من عطاء النور.

فأهل هذه الطبقة قُورًا على صدق التفويض، والتوكل وتصفية الزهادة وصحة الورع. وذروة التقوى. فنالوا بها الرضا عن ربهم، والشكر، ومعالي الأخلاق، لأنهم قد باينوا هواهم وكيف يصدق تفويض عبد وهواه مقيم معه مئيل معه هكذا وهكذا، وشهوته عاملة فيه.

وكيف يصدق تعيين عبد وموكله وزهده وهو مع الشهوة والرهبة، ولن يستولى على عبد شهوته في وقت طاعته حتى يغلب ذكرها على قلبه إلا وذاك له بمرصد عن المعصية أيضاً وهو خطر عظيم.

وروى عن النبي ﷺ قال: "قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين"^(١) وروى عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: (من شغله ذكرى وقراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)^(٢)، وعن خلد بن معدان قال: قال داود ﷺ، يقول الله - عز وجل (لأعطين النفس، ولا سائل يسأل إلا من أجل نفسه فهو مع الهوى).

فإذا كان ثواب المشغول بذكره عن المسألة للنفس. أن ينال أفضل ما أعطى السائلين، فكيف وأن المشغول به من المشغول بذكره. هيهات عجز الخلق عن

(١) رواه البخاري والبيهقي والبخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) لم يرد حديث صحيح يجمع بين الذكر وقراءة القرآن الكريم في نص شريف، فالحديث الأول الذي رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين) والحديث الآخر رواه ابن حذيفة عن أبي سعيد الخدري قال صلى الله عليه وسلم (من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته ثواب الشاكرين).

هذا المطلع العجيب، إلا من خصه الله بصفوته، واصطفاه لنفسه، وجعل هذا العلم هديته.

قال: فشغل المؤمن في دنياه بدنياه وهو ملك من ملكه، قال الزاهد: شغلني ملك الآخرة عن ملك الدنيا كما شغلك أيها الراغب ملك الدنيا عن ملك الآخرة.

وقال الصديق: شغلني ملكه عن هذين كما شغلكما عن ملكه.

قال العارف: شغلني مالك الملك عن ملكه، كما شغلك أيها الصديق ملكه عن هذين، فالأول الراغب مشغول بدنياه، والزاهد مشغول بآخريته والصديق مشغول بملكه، والعارف مشغول بربه فرداً فهو قول رسول الله ﷺ: سبق المفردون؟ قالوا يا رسول الله: من المفردون؟

قال: الذين اهتموا في ذكر الله. (١) الحديث

قال أبو عبد الله: والمهتد في (٢) لغة العرب الذي قد اهتم عقله فهو في هيئة الحرف (٣) حتى يحيل إليك أنه يتكلم إليك بالمهاتر من الكلام كأنه لا يعقل، فالذين اهتموا في ذكره قد حمدت عقولهم عن استعمالهم بما يستعملهم إلههم في

(١) ورد الحديث الشريف بصيغة أخرى في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال صلى الله عليه وسلم (سبق المفردون) قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله تعالى كثيراً والذكريات.

(٢) أصل الكلمة هذى هذياً، وهذياناً أي تلك بغير معقول.

(٣) الحرف من كل شيء: طرفه وجانبه يقال فلان على حرف من أمره: ناحية منه إذا رأى شيئاً لا يعجبه عدل عنه.

قبضته، فيه يسمعون، وبه يبصرون، وبه يبطشون، وبه يحشون، وبه يعقلون، فهذا عبد انفرد له قلبه، قد غرق في ملك الوجدانية، وانفرد بإلهه فشغله بنفسه عن ملكه، وعن ملك ثوابه وعقابه، وملك دنياه.

فأينما نظر فمعه ينظرونه، وينظرون إليه. لأنه موجود مع الأشياء التي هو ناظر إليها، فلم تكن للأشياء دونه سلطان على شغله عنه، لأنه قد أخذه ربه، فبسلطانه يغلب الأشياء، ويمتنع من الأشياء أن تشغله.

منزلة الشكر والصبر:

قال أبو عبد الله: سألت رحمك الله - عن منزلة الشكر والصبر، أيهما أعلى درجة؟ فوجدنا أقوال المتقدمين في ذلك كثيرة.

منهم من قدم الشكر، ومنهم من قدم الصبر، وكل يرجع إلى شئ من ظاهر الكتاب، وتواتر الأخبار، وأنا مبين لك إن شاء الله ما حصل عندنا من عمل، ولا قوة إلا بالله.

نظرنا إلى جوهر الشكر والصبر وإلى اسمهما، فإن الأسماء دالة على الأشياء، لأنها إشتقت من تلك الأشياء فوسمت بها.

فأما الشكر فهو رؤية العبد منة الله عليه في ذلك، والصبر هو ثبات العبد على مقامه من ربه.

فالشكر جوهر الإيمان، والصبر جوهر الإسلام. وذلك أن العبد إطمأن إلى ربه فسمى مؤمناً، وسلم نفسه عبداً فسمى مسلماً، وكلاهما في وقت واحد، وعقد

واحد، لأن القلب كان في جولان^(١) وتردد. طالباً لربه، فلما أدركته الرحمة وجاءه النور والهداية، سكن القلب عن الجولان. فقليل أمن كما اضطرب في وقت الخوف من شيء، فلما ذهب ذلك الخوف سكن القلب عن الاضطراب فقليل آمن، فأمن على قلب العربية أفعل، فإنما آمن برب منقاد له، ومطيعه. ونظم هذه المعاني كلها، فصار مسلماً له نفسه عبوده بالانقياد، فقليل: مؤمن مسلم، فلزمه الأسمان في وقت واحد، ثم أمر بالاعتراف ليحرم عرضه ودمه وماله على الخلق، ويكون اعتراضه بذلك حجة لله على من سواه إذا انتهكوا هذه الحرمة.

فيثبت من أقام الجريمة، ويعاقب من انتهكها، ويأخذ له منهم بحقه، ولو لم يعترف بذلك لم يتم الحجة، ثم إقتضاه الوفاء بهذين الأسمين جميع عمره، ثم وضع بين يديه في جميع عمره أمرين، لا يوجد لهما ثالث.

أمر هو يفعل بك، وأمر أنت تفعله، فأما الذي يفعله فأحكامه في أحوالك التي يتقلب فيها عز وذل، وفقر وغنى، وصحة ومرض، وأمن وخوف، ونعمة وشدة، ورخاء وبلاء، ومحروب ومكروه.

فاقتضاؤك الوفاء في هذه الأحوال أن يطمئن به قلبك بأفعاله في هذه الأحوال رضا، كما إطمأن به لسانك، فإن لم يقدر على ذلك رضا لشهوة فيك للأشياء ومنية لها، فالصبر لا بد منه وهو ثبات الجوارح على، مقامك فلا تعصيه.

فأما الأمر الذي أمرت أن تفعله فالأمر والنهي، تأتي بما أمرت من الفرائض وتجتنب المحارم، فاقتضاؤك الوفاء بهذا الأمر والنهي فتكون قد سلمت نفسك

(١) جولان: اضطراب وعدم استقرار. يقال: جال الأمر في نفسه: تردد. وجال النطاق ونحوه: تحرك واضطرب لسعته. (والجولان): ما تجول به الريح على وجه الأرض من تراب وحصى.

ومالك عبودية إليه، كما أسلمت يومئذ إسلاماً، فإذا ختمت عمرك بهذا، وقدمت عليه كنت عبداً قد وفيت له بالإيمان والإسلام، فسقط عنك الوزر والحساب، ومن وفى ببعض هذا وخلط جاوزت الحسنات والسيئات، ووجب الحساب على حسب التخليط والتصفية، فهذا شرح الإيمان والإسلام وفيه مقنع، وهو قطع لكلام المختلفين فيه، فمن تقدم، قال بعضهم الإسلام والإيمان واحد، قال بعضهم: هما اسمان .

رجعنا إلى ذكر الشكر والصبر، قلنا: فالشكر في اللغة هو انفتاح القلب حتى تروا لك المنة، تقول العرب: شكر وشكر فهذه من حروف الثلاثة وكلاهما يؤدي إلى معنى واحد. إلا أنه يستعمل هذا في النوع وذلك في نوع، فإذا كشف عن نابه قيل كشر، وإذا انكشف الحجاب عن قلبه قيل شكر^(١).

وهو أن يتصور لك في صدر منة الله عليك في ذلك الشيء الذي وضعه لك. وروى عن الحسن البصري أنه قال: قال موسى: يا رب كيف شكرك آدم؟ قال: علم أن ذلك مني فكان ذلك شكره.

فالعلم من العلامة وهو التصور في ذلك، وذلك أن الصدر بيت القلب قد أشرق فيه النور، فإذا حدث فكره أو ذكر شيء، وقع لذلك الشيء ظل على الصدر بمنزلة البيت الذي يضئ فيه السراج على حائطه، فإذا أشرت بأصابعك هكذا فيما بين السراج والحائط وقع لها ظل على الحائط وتصورت تلك الإشارة مثلاً بين عينيك، فينظر إلى عدد أصابعك إن زادت أو نقصت، وإلى صورة وجهك، فكذاك

(١) شكر فلاناً: ذكر نعمته وأثنى عليه .

شان القلب يتصور لك ذلك الشئ الذى تردد ذكره على قلبك وقع ظله، فإذا ذكرت الخالق لم يقع لذكره ظل.

لأن الذى أشرق نوره فصار الصدر شعاعاً كله بمنزلة المرأة، إذا لاقى نوره بصرك نور المرأة رأيت فيه الجبال، فإذا لاقى نور الشمس صار شعاعاً وإمتلاً البيت من شعاعه، فهذه صفة الشكر واسمه دل على، صفته^(١)، وأما الصبر فاشتقاقه من الأصبار^(٢) وهو أن يتخذ الشئ عرضاً ومنه قيل نهى عن أكل المصبور، وهو أن ينصب الشئ ليرمى بالسهم. فكان صورة الصبر ثبات العبد لسهم القضاء كالغرض لسهم ابن آدم لا يميل يميناً ولا شمالاً، ولا يزول عن مكانه مولياً هارباً فإن شرط العبد فيما بينه وبين ربه الإيمان والإسلام.

فالتسليم هو قائم بين يديه لحكمه، فإذا جاسهم القضاء ترك المركب وهرب فعصا ربه، من أجل ذلك الحكم الذى حل به، كان قد ترك القيام بالشكر هو رؤية النعمة والمنة وهو بمدحه.

(١) صفة الشكر : أنه يبدأ بمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم، ومعاني الشكر عندئذ - كما يقول ابن القيم فى مدارج السالكين - ثلاثة: معرفة النعمة، ثم قبول النعمة، ثم الثناء بها فمعرفة النعمة: تحصيلها ذهنياً، كما حصلت له خارجاً. وقبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بذل ثمن. والثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص، فالعام وصفه بالجلود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك والخاص، التحدث نعمته، والإخبار بوصولها إلهي من جهته كما قال تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث).

(٢) صبر عن الأمر صبراً: حبس نفسه عنه والصبر التجلد وحسن الاحتمال، ورمضان شهر الصبر، لأنه حبس للنفس عن الشهوات.

والصبر هو صبارك نفسك بين يديه كالغرض ينصب السهام وهو مدحك ففى الشكر إظهار مدحه، وفى الصبر إظهار مدحك، والشكر هو أن النعم ظاهر بها عليك لرى مدحه وتنطق بالحمد له عليه^(١)، والحمد والمدح بمعنى واحد، إلا أن الحمد مستعمل فى صنعه، والمدح مستعمل فى صفاته، فكان الرؤية منك لم تؤد بك إلى الحياء منه والخضوع له، والصبر هو أنه ابتلاء ليستخرج خيرك وشرك، فهل ثبت له، وهل تنصب نفسك لسهام غرضه، فكان ما خضعت وتذلت وانقدت من أجل النعيم إنما يظهر صدقك، فالذى ابتلاك به بأنك شكور، تحقق ذلك قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾^(٢).

فأخرج الصبر على قالب فعال، وأخرج الشكر على قالب فعول، بدأ بالصبر قبل الشكر، لأن بالصبر يظهر الشكر، فالشكر منكمن كالنار فى الحجر، والبلاء كالزند يورى النار من الجمر، فإذا اقدحت به الحجر ظهر المنكمن من النار.

(١) ثمة فرق بين الحمد والشكر .. فالشكر عرفان الإحسان ونشره، قال لعب: والشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد، والشكر من الله المجازاة والثناء الجميل، والشكر: الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، وأشكر الضرع واشتكر: امتلأ لبناً. واشتكرت السماء: حفلت واغبرت وجد مطرها واشتد.

أما الحمد فهو أعم من الشكر ويكون عن يد وعن غير يد، والحميد من صفات الله، والحمد رأس الشكر، أحمد الرجل إذا رضى فعله ومذهبه، وفلان يتحمد الناس بجلده أى يريهم أنه محمود. ويتحمد على: أى يمتن على.

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٥ .

فكذلك الشكر هو رؤية النعم^(١)، والقدر بالنعمة، وتعظيم العطاء. والتدليل له والتواضع لعظمته، وهشاشة القلب، فهذا الله سر في القلب منكم.

فإذا ضرب بالبلاء فوجد صابراً لا يخرج، فقد امتحن لاستخراج خيره الذي كان فيه سراً، ثم إذا وجد راضياً فقد سالم البلاء، فقد ضرب بالزند الأكبر حتى أوري جميع ناره.

فدل هذا أن الأمر الجديد إنما هو ما في الحجر من النار، والزند والحجر ليس هما ذلك الخطر والقدر، فهذا مثال الشكر والصبر في صورتيهما.

والشكر سرور القلب بنعمة ربك، فربك عندك ممدوح، فإذا ضربت بالبلاء فصبرت فأنت الممدوح، والرب لم يزل ممدوحاً، فإذا استعملك بما فيه مدح ربك خالصاً صافياً خير لك من أن تستعمل بما فيه مدحك مع مدح ربك فيكون مزاحاً فإن الثناء من الجزاء، اذا جزيت بشئ في الدنيا فالحظ هناك منقوص بقدره.

درجة الشكر:

ومن درجة الشكر أن الله أثنى على أنبيائه وأصفياه. فإثنا أثنى بالشكر على نوح، وإبراهيم عليهما السلام.

(١) جاء في هذا المعنى حديث شريف ذكره ابن أبي الدنيا في كتابه (كتاب الشكر) عن النعمان ابن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (التحدث بالنعمة شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الله والجماعة بركة، والفرقة عذاب).

فقال في قصة نوح: "إنه كان عبداً شكوراً"^(١) وقال في إبراهيم: "اجتباها وهذه"^(٢). وذكر من سواهم من الرسل فقال: "كل من الصابرين"^(٣) - وخصهما بذكر الشكر مع أن كلهم شاكرون، وعمهم بذكر الصبر مع أنهم كانوا صابرين. فالشاعر قد ظهر ناره فلا يحتاج إلى قدح الزند حتى يرى، والصابر لا بد من أن يكون هناك شيء حتى يستخرج بالزند ناره.

فمنهم من يورى لأنه يابس الباطن من الشهوات، ومنهم من لا يورى لوطوبة الباطن من الشهوات، كما أن الحجر إذا أصابته نداوة فضرب بالزند لم يور .

ومن درجة الشكر أن الله تعالى ذكره في التنزيل، فقال: "أن اشكر لي ولوالديك"^(٤) ، وقال في الصبر: "وأصبر لحكم ربك"^(٥) وقال: ﴿وَلَنصَبِرْ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٦) - فأخبر أن الشكر له والصبر للصابرين، فشتان بين أمرين أحدهما له والآخر لك .

ومن درجة الشكر إنه ذكر الشكر فقال: "اعملوا آل داود شكراً"^(٧) فالعمل إظهار الشكر، والصبر هو ترك العمل النسبي فذاك عمل، وهذا كف عن العمل، ففي هذا الكف ترك الشهوة، والعمل زيادة، ومن درجة الشكر أنه ذكره فقال:

(١) سورة الإسراء / الآية ٣ .

(٢) سورة النحل / الآية ١٢١ .

(٣) سورة الأنبياء / الآية ٨٥ .

(٤) سورة لقمان / الآية ١٤ .

(٥) سورة الطور / الآية ٤٨ .

(٦) سورة النحل / الآية ١٣ .

(٧) سورة سبأ / الآية ١٣ .

"وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" (١).

لأن العاملين له قليل، وأكثر العبيد إنما يعملون لأنفسهم. ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته، وقل من يعمل له على العبادة شكراً (٢).

وبلغنا أن رسول الله ﷺ - كان يقوم حتى تتورم قدماه بعد المغفرة، فقل يا رسول الله: أتفعل هذا: وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً (٣).

وبلغنا أن إدريس جاءه الملك فبشره بأن الله عنك راض. فسأل الحياة، فقال له الملك: وما تصنع بالحياة؟ قال: أريد أن أعمل لربي شكراً بما رضى عني.

حدثنا بذلك عبد الله بن أبي زيادة عن سنان عن جعفر بن سليمان قال حدثنا سنان أبو ربيعة قال حدثني جعفر بن زيد العبدى قال: أتى إدريس ملك من الملائكة فقال: جئت أبشرك أن الله عنك راض، فبكى إدريس، وأخذته نفخة، ثم سأل الله أن يقيه، فقال له الملك: وما تصنع بالبقاء وقد رضى الله عنك؟ فقال: إنما كنت أعمل لنفسي، فأريد البقاء لأعمل في الشكر، فبسط الملك جناحه فقال له: اجلس، فجلس على جناحه، فصعد به إلى السماء.

(١) سورة سبأ / الآية ١٣.

(٢) ذكر الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع رجلاً يدعو الله تعالى: فيقول (اللهم أجعلنى من القليل) فقال عمر: ومن القليل؟ فقال الرجل: ألم تقرأ قوله تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ) فقال عمر: كل الناس أعلم منك يا عمر !!

(٣) الحديث ورد في الصحيحين عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

والشكر فعل الأحرار، والصبر فعل العبيد، وإنما هي عبودية ثم حرية، ألا ترى: أن إدريس عمل في الشكر بعدما رضى عنه وحرره، ورسولنا عليه الصلاة والسلام عمل فيه بعد ما حرره، وغفر له الذنوب ما تقدم منها وما تأخر.

فابتدأ رسولنا عليه الصلاة والسلام الصبر، ثم بالشكر وكذلك بكل ممتحن لنا بالأقل ثم بالأشد، والإمتحان بالصبر أشد منه بالشكر.

ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم: (لأنا بفتنة السر أخوف عليكم من فتنة الضر)^(١) أو قول عبد الرحمن: إبتلينا بفتنة الضر فصبرنا وإبتلينا بفتنة السر فلم نصبر.

فكل ممتحن خرج مستقيماً من النقم فهو أرفع درجة من الذى خرج من الشدة، وهو قول عيسى عليه السلام (فلا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء).

وتأويله أن العباد على ضربين: عبد ولدته أمه حراً كريماً، حراً من الشهوات كريماً طبعه من لين التركيب وصفاء الخلق، وطهارة الروح وحرية الطينة، ألا ترى أن الطين الحر كيف ينفاد للعمل لهذه الكريان^(٢) والجرار، وكيف يتمدد، فمن خلق من ذلك الجنس وطبعه ليناً كريماً حراً، وعبد ولدته أمه كزاً لئيماً^(٣) ذا شهوات، وذاك لصلاية طينته وقوتها وحدتها وكزازتها.

فأخلاقه كدرة، وروحه كدودة فى إستعماله فى الجسد بهذه الأخلاق، فإذا

(١) لم أستدل على هذا الحديث بلفظه هذا فى كتب الصحاح .

(٢) لم نجد لها مرادفاً فى القواميس العربية .

(٣) كز الشئ كزاقة: ييس وانقبض من البرد، وفلان كزازة: قل خيريه ومساعدته فهو كز، ورجل كز اليدين يخيل .

أدركه الإيمان والخوف من ربه إنقاد، فهو عبد تقى لا يصلح للعبودية الصافية إنما يصلح ذلك للعبادة المازجة فله الجنة والأول وهذا المقتصد، والأول السابق بالخيرات ياذن الله ذلك هو الفضل الكبير^(١).

فهذا إنما يعمل على الصبر في الطاعة والصبر عن المعصية فهو أبداً في عمره في أثقال الدين، والأول يخطئ هذه الدرجة إلى درجة المعرفة فريضه^(٢) القربة ومعتكفه باب الملك، فهو يعمل على الشكر والحجة والشوق.

فهو في بساين الدين قد إرتفعت عنه أثقال الدين نشط من عقلها، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٣). ولم نجده قال: وقليل من عبادى الصبور، فالأقل من كل صنف هو الأغزر.

ألا ترى أن المؤمنين قليل في الكافرين، والأتقياء قليل في المؤمنين، والأولياء قليل في الأتقياء، والأنبياء قليل في الأولياء، والرسول قليل في الأنبياء.

ومن درجة الشكر إنه قال في تنزيله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾^(٤). وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥). فذكر الأجر لأنه عوض من شدة نفسه ثبت على الشدة على جهة المتاجرة، فأعطاه أجره، والشاكر بذلك له على طريق

(١) هذا المعنى موجود في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ياذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فاطر : ٣٢ .

(٢) الرِّئَاض : ما حول المدينة والمريض : المأوى .

(٣) سورة سبأ / الآية ١٣ .

(٤) سورة آل عمران / الآية ١٤٥ .

(٥) سورة الزمر / الآية ١٠ .

المكارمة، وثبت له على العبودية على طريق السخاء وبنفسه، فذكر الجزاء، والجزاء مكافأة السيد لعبده، والصابر عامل على جهة التجارة، وإعطاء أجره في الجنة بغير حساب.

لأن الصابر أخذ من نفسه فثبت فأعطى أجره، والشاكر أعطى فتواضع وتكرم فجزي وأجر الصابر من الجنة، لأنه عوض للنفس من الذي أخذ منها وجزي الشاكر بالتواضع رفعة والتكريم كرم، فبعدما بين الأمرين نال ذاك الجنة، ونال هذا الرفعة والكرم من ربه.

فقد قلنا: إن هذا الصبر عامل على جهة التجارة فأعطى أجره من الجنة، والشاكر أعطى القربة، فالجنة عوض عن النفوس التي سلمت إلى ربها فثبت فنقمت فيها، والقربة عوض عن القلوب التي قطعت أسبابها إلى خالقها فهذا عمل على السماحة والسخاوة بنفسه من غير تلفت إلى متاجرة.

والصابر عمل له على ما ذكرنا، فولى جزاء الشاكر بنفسه، فقال سيجزي الشاكرين وإنهم ذكر جزاء الصابرين من بلى ذلك منه فشتان ما بين الحديد والحجر .

ومن درجة الشكر أن ضده كفر^(١)، وضد الصبر الجزع^(٢)، والكفور ممقوت، والجزع مذنب، لأن ترك الشكر هو من العطاء، وذهاب الرؤية في وقت الغفلة عن الرب عز وجل، وترك مدحه، وترك الصبر هو أن الشدة أزعجته من مكانه، فقليل جزع لما أعجز البلاء، وجزع وعجز بمعنى واحد، إلا أنه مستعمر في صنف، وذاك

(١) هذا المعنى موجود في قوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) إبراهيم: ٧ .

(٢) هذا المعنى موجود في قوله تعالى (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) إبراهيم: ٢١ .

مستعمل في صنف، فالعجز ضعف الجوارح سقوطه من ذلك العمل والجزع ضعف النفس في الباطن وسقوطه عما أريد من الثبات.

ففي العطاء ترك مدحه وغفلته عن ذكره، وفي الجزع سقوطه عن مقامه، فالأول لعظم خطر، فلذلك صار ثوابه أعظم من درجة الشكر أنه قال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾^(١). لأن الصابر يحتاج إلى العون، ولم يقل مع المصلين، لأنه لهم لأن المصلي مقامه مقام الشكر فهو مع الصابرين والمصلين، ألا ترى إلى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (وجعلت قرّة عيني في الصلاة)^(٢) ولم يقل بالصلوة، ولكنه في الصلاة، وهو لانفتاح القلب في الصلاة ووجود القلب لذة القربة، والمناجاة،

وليس هذا في الصوم، لأنه كف عن الشهوات. محتاج إلى عون. فهو مع هؤلاء العون وهؤلاء في القربة.

ومن درجة الشكر أنه قال عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(٣). وزيادة الشيء من الشيء، فجعل زيادة الشكر شكراً آخر، وذلك أن الصبر إذا رأى المنّة عجل الله له في العاجل ثواباً فزاده نوراً، فهو زيادة الشكر فإزداد بصيرة، فذلك بعث له على السير إليه، والوصول إليه.

(١) سورة البقرة / الآية ٤٥.

(٢) الحديث ورد في النسائي وسند الإمام أحمد، وذكره الألباني في الجامع الصغير ونص الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال - صلى الله عليه وسلم - (حُبّ إلى من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرّة عيني في الصلاة) وفي رواية (وجعلت).

(٣) سورة إبراهيم / الآية ٧.

وقال في الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)، فوجدنا الشكر ثوابه الزيادة منه، وهو سبب الوصول إليه، ووجدنا الصبر ثوابه من الجنة، والصابرون تثبتوا على أحكام ربهم وتأجلوه، وأثابهم نعيم الجنة، والشاكرون رأوا المنة بذلك النور، فزادهم نوراً وازدادوا بصيرة.

فامتألت قلوبهم معرفة وبصيرة وعلقت بالنعم، فتمثل هذا في التصوير، كأنى قلت لعبد لى: أشرت له إلى مكان بعيد منى قف على ذلك المكان بين يدي حتى أرميك بسهامي، فإن ثبت لى، كان في ذلك علامة صدقك في تسليم نفسك إلى العبودية. فلم أزل أرميه وهو راسخ القدمين ثابت لا يزول عن مكانه، قد رفع المبالاة عن نفسه، فقد أظهر صدقه في تسليم نفسه إلى، وإشارى عليها فأكرمه وهديته، وأغنيته، وأجزلت له عطيته، وأعتقته بما أظهر من صدقه، فهذه صفة الصابرين.

والآخر عبد لى قلت له: قف هناك، فكلما رميت إليه ديناراً فقبله فرمىته إليه ديناراً فأخذه ثم رميت آخر رمية أقصر من الأولى، فوقع منه على ربوة فتقدم فرفعه، ثم رميت آخر فوقه دون ذلك، فتقدم فرفعه، ثم رميت آخر فوقه دون ذلك، فتقدم فرفعه ثم رميت آخر فوقه دون ذلك فتقدم فرفعه.

فلم أزل أرمي إليه ديناراً بعد دينار، فكل واحد دون الآخر، وهو في كل واحد يتقدم لرفعه، حتى صار واقفاً بين يدي في محل القرية، فهذه صفة الشاكر.

صفة الصابر:

فالصابر واقف بمكانه يُرمى بالشدائد ليثبت ويظهر صدقه بتسليم نفسه فتعلو رتبته، وتخلص عبوديته، والشاكر يرمى باللطائف والتحف ليدنو فتطهر شرته^(١)، والشاكر راكض اليد عدواً تعظيماً لربه بما يصنع به، ومحبة له وشوقاً إليه .

والصابر ثابت بمكانه وفاء لربه، والشاكر يجمع نفسه بالبر حتى يستحي، فرجع إلى ربه، والصابر يجمع نفسه بالبلاء حتى يذلها، فينقاد لربه .

فالشاكر يرجع إلى ربه مسروراً، والصابر يرجع إلى ربه مقهوراً نفسه، فالشكر سرور القلب بالله، وفي الصبر تحير وانكسار، وهو خطر عظيم هذا بالبر والنعم. وهذا بالشدة والبؤس مقهور لأن النفس عليك، وفي الأول معك فيها هنا تعينك، وهناك تعين عليك، إلا أن يعصم الله، فتحير وتدهش .

والشكر رؤية العبد بره، لطفه، وجوده، وكرمه، وعطفه، ورأفته، ورحمته، وإحسانه، والصبر رؤية حكمه، والشكر رؤية بر الله لعبده، والصبر طلب الصدق من عنده، والشكر بمنزلة المرهم للنفوس، والصبر بمنزلة دواء المشى، والشكر بمنزلة أدوية الكيمياء يلقي منها مثقال على مائة مثقال من صفر، أو شبه، فتصير ذهباً .

والصبر بمنزلة النار يصفى الذهب ويزيل خبثه لشدة حريقه، ليس له سلطان الكيمياء، والشكر رؤيتك الأشياء له وإمساكك على نواياه وأموره واحدة، أو لم يأخذه فهو له .

والصبر تسليمك الأشياء إليه من بعد أن حبسته لنفسك، فيأخذه منك، وفي

(١) شرته، أى حرصه وإشتهائه .

الشكر رؤية الحظ من الله، وفى الصبر رؤية النفس: إن الله وجدك محققاً فقط،
والشكر إيمان العبد: أن الأشياء له ومنه، والصبر إيمان العبد: بأن نفسه له، والشكر
منزلة لا يناها أهل النار فى النار وهو لأهل الجنة .

والصبر منزلة قد يناها أهل النار فى النار وإن كان غير مقبول منهم، والشكر
باق لأهل الجنة فى الأبد السرمدة، والصبر على، البلاء والعافية من فضله .

والفضل من جماله، والبلاء من سلطانه، والسلطان من ملكه، وفى الآخرة غداً
للجمال منه لأهل الجنة، والسلطان منه لأهل النار .

فانظر من أين مستخرج العافية، ومن أين مستخرج البلاء والشكر مع فرح
القلب بصنع الله؟

والصبر مع ألم القلب منعة النفس بحكم الله، والفرح مركب القلوب فى حال
السير إلى الله عز وجل، والوجد من الألم بحر راكد فيحتاج إلى سفينة وريح طيبة .

تم الكتاب بحمد الله

المصادر والمراجع

- * القرآن الكريم.
- * إبراهيم: الشيخ محمد زكى إبراهيم.
- أبجدية التصوف، ط. العشيرة الحمديدية ١٤٠٣هـ، القاهرة.
- * الأشعرى: أبو الحسن على بن إسماعيل العشرى.
- مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ط. مكتبة النهضة.
- * الأنصارى: الشيخ زكريا الأنصارى.
- نتائج الأفكار القدسية شرح الرسائل القشيرية، ط. الأميرية، بولاق ١٢٩٠هـ.
- * الأهوانى: الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى.
- القيم الروحية فى الإسلام، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٢٨٢هـ.
- * أمين: الدكتور عثمان أمين .
- الجوانية، ط. دار القلب، بيروت، ١٩٦٤م .
- * ابن الجوزى: الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن .
- تلبس إبليس، ط. مكتبة نصير بمصر .
- صفوة الصفوة، ط. حيدر آباد، الهند، ١٣٥٥هـ .
- * ابن حجر: أبو الفضل أحمد على الكشاني .
- لسان الميزان، ط. حيدر آباد، ١٣٢٩هـ .

- * ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد .
المقدمة: ط. لجنة البيان العربى .
- * ابن رجب: زين الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين
اختيار الأولى فى شرح حديث الملائ الأعلى، ط. المنيرة، مصر.
- * ابن عجيبة: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسن.
الفتوحات الإلهية، ط. عالم الفكر بمصر .
- * ابن عربى: محمد بن على الطائى المتوفى سنة ٦٣٨هـ .
الفتوحات المكية، ط. بيروت .
- * ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن
أبى أيوب بن سعد الزرعى المتوفى سنة ٧٥١هـ .
- الروح، ط. نصير بالأزهر.
- مفتاح دار السعادة وشعور ولاية العلم والإرادة، ط. السعادة بالقاهرة .
- * ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
المتوفى سنة ٧٧٤هـ.
تفسير القرآن العظيم، ط. كتاب الشعب بالقاهرة .
- * ابن منظور: أبو الفضل محمد بن جلال الدين.
لسان العرب، ط. دار المعارف .
- * أبو حفص: الشيخ أبو حفص عمر بن بدر الموصلى.
المغنى، ط. الأزهر، ١٤٠٣هـ .

- * أبو الشيخ: أبو محمد عبد الله الأصبهاني .
أخلاق النبي وآدابه، ط. دار السعادة بمصر .
- * أبو نعيم: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ٤٣٠هـ .
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ .
- * أبو طالب المكي: محمد بن علي بن عطية المتوفى، سنة ٣٨٦هـ .
- علم القلوب، ط. مصر، ١٩٦٤م .
- قوت القلوب، ط. دار صادر، بيروت .
- * بركة: الدكتور عبد الفتاح بركة .
- الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، ط. مجمع البحوث الإسلامية
١٩٧١م .
- في التصوف والأخلاق، نصوص ودراسات، ط. دار القلم، بيروت .
- * التفتازاني: الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني .
ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، ط. القاهرة، ١٩٥٨م .
- * جعفر: الدكتور محمد كمال جعفر .
التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً، ط. دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠م .
- * الجيلاني: أبو صالح عبد القادر بن موسى .
- الغنمة لطالبي طريق الحق، ط. الحلبي، ١٣٧٥هـ .
- فتوح الغيب، ط. الحلبي، ١٢٩٢هـ .

*الجيلي: العارف بالله عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي .

مراتب الوجود، ط. مكتبة الجندی، مصر .

*الحكيم الترمذی: أبو عبد الله محمد بن علي المتوفى سنة ٣٢٠هـ.

- الأكياس والمغترين، تحقيق: الدكتور أحمد السايح، والدكتور السيد الجميلي .

- منازل العباد من العبادة، تحقيق: الدكتور أحمد السايح .

- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح.

- ختم الأولياء، تحقيق: الدكتور عثمان إسماعيل .

- علم الأولياء، تحقيق الدكتور سامي نصر لطف .

- نوارد الأصول في معرفة أحاديث الرسول، تحقيق: الدكتور السيد الجميلي،

والدكتور أحمد السايح .

*الحكيم: الدكتورة سعاد عبد الحكيم .

المعجم الصوفي، ط. المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٤٠١هـ .

*حلمي: الدكتور محمد مصطفى حلمي .

الحياة الروحية في الإسلام، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م .

*الخراز: أبو سعيد .

الطريق إلى الله أو كتاب الصدق، ط. دار الكتاب الحديثة، ١٩٧٥م .

*الخطيب: الأستاذ عبد الكريم الخطيب .

نشأة التصوف، ط. مؤسسة الشرق للطباعة، ١٣٨٠هـ .

- * الدباغ: عبد العزيز الدباغ .
الإبريز، ط. محمد على صبيح .
- * دنيا: الدكتور سليمان دنيا .
مفهوم التصوف، ط. مؤسسة الشرق للطباعة، ١٩٨٠ م .
- * ذكرى: الدكتور أبو بكر ذكرى .
تاريخ النظريات الأخلاقية، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٧٨ هـ .
السايع: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايع .
- السلوك عند الحكيم الترمذى، ط. دار السلام بالقاهرة .
- الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .
- هذا هو الإسلام، ط. دار الثقافة بالدوحة .
- عباس محمود العقاد فيلسوفاً، رسالة ماجستير، ١٩٨٠ م .
- * السراج: أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي ٣٧٨ هـ .
اللمع، ط. مصر، ١٩٦٠ م .
- * سعد: الدكتور محمد سعد .
التصوف فى تراث ابن تيمية، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ م .
- * السكندرى: ابن عطاء السكندرى .
- تاج العروس على هامش التنوير، ط. القاهرة .
- شرح الشيخ الرندى على الحكم، ط. البابى الحلبي، ١٣٥٨ هـ .

* السلمى: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى ٤١٢ هـ .

- طبقات الصوفية، ط. القاهرة .

* السهروردى: شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله

٦٣٢ هـ .

عوارف المعارف، ط. مصر ١٩٣٩ م .

* الشاذلى: الدكتور الشاذلى .

مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة - رسالة دكتوراه بمكة

كلية أصول الدين بالقاهرة .

* شرف: الدكتور محمد جلال شرف .

أعلام التصوف فى الإسلام، ط. دار الجامعات المصرية بالإسكندرية،

١٩٧٦ م.

* الشرقاوى: الدكتور حسن محمد الشرقاوى .

- ألفاظ الصوفية ومعانيها، ط. دار المعرفة بالإسكندرية .

- نحو علم نفس إسلامى، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* الشعرانى: أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على ٩٧٣ هـ .

- الطبقات الكبرى، ط. مصر، ١٩٢٥ م .

- تنبيه المغترين، ط. دار إحياء الكتب العربية .

- لطائف المتن والأخلاق، ط. عالم الفكر بمصر .

- * صبحي: الدكتور أحمد محمود صبحي .
التصوف إيجابياته وسلبياته، ط. عالم الفكر، الكويت .
- * صقر: الأستاذ حامد صقر .
نور التحقيق، ط. دار التأليف بمصر، ١٣٦٩ هـ .
- * صليبا: الدكتور نجيل صليبا
المعجم الصوفي، ط. دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧ م .
- * طاش كبرى زاده: حسام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل ٩٦٢ م .
مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط. الاستقلال الكبرى بمصر .
- * العروسي: مصطفى بن محمد الصغير
إنتاج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية، ط. بولاق
١٢٩٠ هـ .
- * عبد الرازق: الدكتور مصطفى عبد الرازق ولوى ماسينون
الإسلام والتصوف، ط. دار الشعب ١٩٧٩ م .
- * عفيفي: الدكتور أبو العلا عفيفي .
الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، ط. عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٤ هـ .
- * العوا: الأستاذ عادل العوا .
المذاهب الأخلاقية، ط. بيروت .
- * عياد: الأستاذ أحمد توفيق عياد .
التصوف الإسلامي، ط. الأنجلو المصرية ١٩٧٠ م .

- * عيسى: الأستاذ عبد القادر عيسى .
حقائق عن التصوف، ط. مطبعة البلاغة، حلب، ١٩٣٠ م .
- * الغزالي: محمد بن محمد الغزالي .
- ثلاث رسائل في المعرفة، تحقيق: الدكتور محمود حمدى زقزوق .
- القسطاس المستقيم .
- المنقذ من الضلال .
- منهاج العابدين .
- * غلاب: الدكتور محمد غلاب .
التسك الإسلامى، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- * غنى: الدكتور قاسم غنى .
تاريخ التصوف فى الإسلام، ط. النهضة المصرية ١٩٧٠ م .
- * فرغل: الدكتور يحيى هاشم فرغل .
أصول التصوف فى الإسلام، ط. الجيلاوى، ١٤٠٤ هـ .
- * القاشانى: عبد القادر القاشانى .
شرح نصوص الحكم، ط. عيسى البابى الحلبي ١٣٨٦ م .
- * القشيري: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، توفى سنة ٤٦٥ هـ .
الرسالة القشيرية، ط. القاهرة .
- * قميحة: الدكتور جابر قميحة .
المدخل إلى القيم الإسلامية، ط. دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٤ هـ .

* القيسى: أحمد ناجى القيسى .

كتاب فريد الدين العطار النيسابورى ومنطق الطير، ط. جامعة بغداد
١٣٨٨هـ .

* الكلاباذى: أبو بكر محمد بن إسحاق البخارى ٣٨٠هـ .

التعرف لمذهب أهل التصوف، ط. مصر، ١٩٦٠م .

* مبارك: الدكتور زكى مبارك .

التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق، ط. المكتبة العصرية، بيروت .

* المحاسبى: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ٢٤٣هـ .

العقل وفهم القرآن، ط. دار الكندى، بيروت، ١٩٧١م .

* محمود: الدكتور عبد الحليم محمود .

- المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلى، ط. دار الكتاب الحديثة .

- فلسفة ابن طفيل، ط. الأنجلو المصرية .

- الفيلسوف المسلم، ط. الأنجلو المصرية .

* مصطفى: الدكتور محمد مصطفى .

- الرمزية عند محبى الدين بن عربى رسالة دكتوراه بمكتبة الدكتور محمد
مصطفى .

- علم التصوف، ط. السعادة بمصر، ١٤٠٣هـ .

- * المنوفى: السيد محمود أبو الفضل الموفى .
- التمكين فى شرح منازل الساترين، ط. دار نهضة مصر ١٩٦٩ م ..
- جهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف، ط. الحلبي بالقاهرة ١٩٦٧ م .
- * المناعى: الدكتورة عائشة يوسف المناعى .
- أبو حفص عمر السهروردورى حياته وتصوفه، رسالة ماجستير مكتبة كلية الدراسات الإسلامية (بنات) جامعة الأزهر .
- * النجار: الدكتور عامر النجار .
- التصوف النفسى، ط. دار المعارف بمصر، ١٤٠٥ هـ .
- * النجار: الدكتور عبد المجيد النجار .
- العقل والسلوك فى البيئة الإسلامية، ط. تونس .
- * الهجویری: على بن عثمان الجلابی الغزنوی ٤٦٩ هـ .
- كشف المحجوب، ط. القاهرة، بيروت .
- * الهروى: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى .
- منازل الساترين إلى الله عز شأنه، ط. الحلبي، ١٣٨١ هـ .
- * اليافعى: أبو عبد الله اليافعى .
- نشر المحاسن الغالية، ط. الحلبي .

فهرست الكتاب

أرقام الصفحات	الموضوع	م
٣	مقدمة الخقق	١
٢٩	مقدمة الكتاب	٢
٣٠	صفة أبواب الفؤاد	٣
٣١	صفة الصدر	٤
٣٧	صفة الأبواب التي على الصدور	٥
٣٨	باب صفة النفس، وما فيها	٦
٤٠	باب صفة النفس الباطنة	٧
٤٢	احتجاج إبليس فيما إحتج به	٨
٤٧	بين آدم وإبليس	٩
٥٢	إمتناع إبليس عن السجود	١٠
٥٣	صفة آدم عليه السلام	١١
٥٥	باب معاتبة إبليس	١٢
٥٦	باب سؤال آدم النصرة	١٣
٥٩	باب سؤال إبليس المدد	١٤
٦١	باب صفة المعرفة وصفة لباسها	١٥
٦٣	خلق آدم عليه السلام	١٦
٧٢	تفسير قوله تعالى (ألست بربكم)	١٧
٨٣	تفسير اسم إبليس	١٨
٨٤	تفسير إسم إبراهيم عليه السلام	١٩
٨٥	تفسير إسم فرعون	٢٠

٨٨	تفسير بعض رؤوس السور القرآنية	٢١
٩٠	تفسير لا إله إلا الله (كلمة التوحيد)	٢٢
٩٤	تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض)	٢٣
١٠٦	تفسير قوله تعالى (آلم)	٢٤
١٠٦	تفسير قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم)	٢٥
١١٢	باب صفة العقل	٢٦
١١٣	باب صفة جنوده	٢٧
١١٤	باب أمور جند العقل	٢٨
١١٥	باب صفة إبليس وجنوده	٢٩
١٢٠	إبليس ويحيى عليه السلام	٣٠
١٢٨	باب صفة جنود إبليس وبدء أمره وقصته	٣١
١٢٨	باب صفة أخلاقه	٣٢
١٣٠	باب صفة القلب والنفس والصدر	٣٣
١٤٨	باب وصف المنفردين	٣٤
١٥٦	باب نعيم أهل الجنة	٣٥
١٦٠	باب منزلة الشكر والصبر	٣٦
١٦٥	درجة الشكر	٣٧
١٧٣	صفة الصابر	٣٨
١٧٥	المصادر والمراجع	٣٩
١٨٥	فهرس الكتاب	٤٠

